



31.12.2015

غسان کفایہ

موت سریر رقم ۱۲

غسان كنفاني

موت سرير رقم ١٢

منشورات الرمال



مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

جميع الحقوق محفوظة © السيدة أني كنفاني

دار منشورات الرمال

قبرص

www.rimalbooks.com

الطبعة الأولى 2013

الطبعة الثانية 2014

ISBN 978-9963-610-82-2

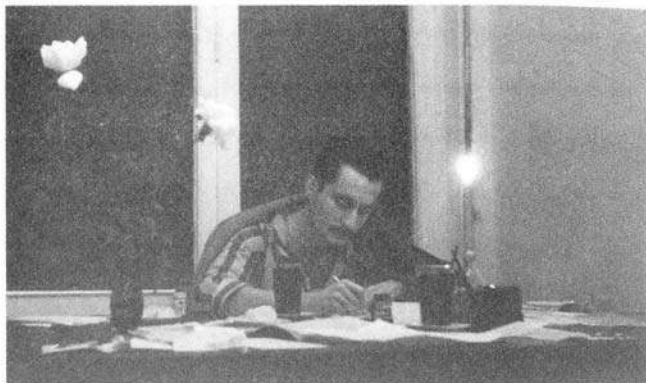
نشرت هذه القصص في طبعتها الأولى سنة 1961

صورة غسان كنفاني تصوير أني كنفاني

تصميم الغلاف ميدا فريجي مقدسي

الخطاط: شوقي يوسف

الغلاف: لوحة لغسان كنفاني



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍّ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهادهِ بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أُجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٣ استشهد في بيروت مع ابنة أخته

لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.
أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب
مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني.
في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات
عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته
ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين
لغة. كما دخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ
إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة،
واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله
التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

إلى أختي فائزة...

إن كان في القصص ما يستحق أن يُهدى إلى العزيزة فائزة..

غسان

مقدمة

جرت العادة أن يحصل الإنتاج الأول لأي كاتب على «جواز مرور» للقارئ... كلمة لقلم مشهور تتصدر الكتاب.. أو جمل موجزة على ظهر الغلاف، أو حملة دعاية واسعة يشترك فيها الكاتب والناشر وأصدقاء الطرفين، يحكون فيها كيف خلقت القصص، وكيف نزفها القلم المجروح، وكيف.. وكيف..

أنا أؤمن أن الكتاب يجب أن يقدم نفسه، وإذا عجز عن إحراز جزء من طموح كاتبه، فعلى الكاتب أن يقبل ذلك ببساطة، كما قبل - مرات ومرات - أن يمزق قصصاً ليعيد كتابتها.. أو يكتب سواها.. وهكذا في «موت سرير رقم ١٢»، أدفعها لتشق طريقها، إن استطاعت أن تهتدي إلى أول الطريق، بنفسها، دون «شفاعة» ودون «وساطة» ودون «جواز مرور»..

حتى هذه الكلمة، كان يجب ألا تكتب لولا أنني أردت منها شرح نقطة واحدة..

مجموعة القصص قسمتها إلى ثلاثة أقسام.. ولم يكن الهدف من ذلك ملاحقة التطور الزمني، فبعض القصص في القسم الأول

كتببت في فترة زمنية أتت في أعقاب القصص التي كتبت في القسم الثالث مثلاً.. ولكن الهدف من هذا التقسيم هو الفصل بين ثلاثة أنواع من القصص، إذا عجزت هي نفسها عن توضيح الفرق بينها، فلن تستطيع هذه الكلمة الموجزة أن تفعل..

ولابد أيضاً، ولو بدا ذلك غريباً بعض الشيء، أن أرسل عزائي إلى العائلة المجهولة التي فجعت بموت ابنها «محمد علي أكبر» الذي مات بعيداً، وحيداً، غريباً، على السرير رقم ١٢، وهو ينزف عرقاً نبيلاً في سبيل لقمة شريفة..

غسان كنفاني

المحتويات

القسم الأول

١١	البومة في غرفة بعيدة
٢١	شيء لا يذهب
٣٢	منتصف أيار
٤١	كعك على الرصيف
٦١	في جنازتي
٧٥	الأرجوحة

القسم الثاني

٨٥	موت سرير رقم ١٢
١١١	لؤلؤ في الطريق
١٢٣	الرجل الذي لم يموت
١٣٩	العطش
١٤٥	المجنون
١٥٣	ثمانى دقائق

القسم الثالث

١٦٥	أكتاف الآخرين
١٧٧	قلعة العبيد
١٨٧	سنة نسور وطفل
١٩٩	القط
٢٠٩	الخراف المصلوبة

البومة في غرفة بعيدة

كل صور عدد كانون الأول من المجلة الهندية «أ..» كانت رائعة ، ولكن أروعها بلا شك صورة ملونة لبومة مبتلة بماء المطر .. وتكمن كل روعتها في لحظة اللقطة الموفقة، وفي براعة الزاوية .. وأهم من هذا كله: في اصطياد النظرة الحقيقية للبومة المختبئة في ظلمة ليل بلا قمر.

كنت في غرفتي: غرفة عازب بجدران عارية تشابه إحساسه بالوحدة والعزلة.. أرضها متسخة بأوراق لا يدري أحد من أين جاءت، والكتب تتكدس فوق طاولة ذات ثلاث قوائم رفيعة، أما القائمة الرابعة فقد استعملت يداً لمكنسة ما لبثت أن ضاعت.. والملابس تتكوم فوق مسمار طويل حفر عدة ثقوب بظهر الباب قبل أن يركز نهائياً في ثقبه الحالي.

قلت لنفسي وأنا أشد بصري إلى صورة البومة الرائعة:

- يجب أن تعلق هذه الصورة على حائط ما.. فذلك يكسب الغرفة بلا شك شيئاً من الحياة والمشاركة...

ألصقت الصورة بالفعل على الحائط المقابل للسرير، وأطرتها بورقة بنية كي تنسجم مع الحائط بشكل من الأشكال، كان العمل الفني، إذن، قد أخذ سبيله إلى الغرفة، وكان لابد أن أغبط نفسي على التقاط هذه الصورة.

عندما أويت إلى فراشي في منتصف الليل، فاجأتني الصورة. كان ضوء الغرفة خفيفاً بعض الشيء، وقد يكون هذا هو السبب الذي من أجله بدت لي الصورة في غاية البشاعة. كان رأس البومة أكبر من المعتاد، وكان يشبه شكلاً رمزياً لقلب مفلطح بعض الشيء، أما المنقار الأسود فقد كان معقوفاً بصورة حادة حتى يشبه منجلاً عريض النصل، والعينان كانتا مستديرتين كبيرتين يختفي أعلاهما تحت انحناء الحاجبين الغاضبين، كان في العينين غضب وحشي، وكانت النظرة - رغم ذلك - تحتوي خوفاً يائساً مشوباً بتحفز بطولي وتشبه إلى حد بعيد نظرة إنسان خضع فجأة للحظة ما، عليه أن يختار فيها بين أن يموت، أو أن يهرب، كان الوجه مخيفاً وبدا أن العيون المستديرة اللماعة بإيماءة حية، كانت تحدق عبر صمت الغرفة، وتخرق برعشتها الحية جمجمتي، وتقول بصري حاد:

- أتذكر؟.. لقد التقينا مرة قبل الآن.

أطفأت الضوء الشاحب، ودفنت رأسي في الغطاء الموسخ بعرق الصيف اللزج، ورغم ذلك، فقد كنت أرى العينين الغاضبتين الخائفتين تخترقان الظلمة وتحققان فيّ، كان وجه البومة المتحدي لضغط لحظة ليس فيها سوى الاختيار بين الموت والفرار ماثلاً في رأسي كأنني لم أحول نظري عنه بعد، ملحاحاً، غضوباً يتمسح باشمئزاز ساخر، وعبثاً ذهبت كافة المحاولات التي بذلتها لأسلخ الصورة عن رأسي، كانت شيئاً قد دخل إلى الغرفة العارية، وإلى إحساسي، وتمزق الصمت الميت تحت الصرير الحاد الذي كان ما يزال ينحدر من المنقار الأسود المعقوف:

- لقد تقابلنا مرة قبل الآن... أتذكر؟

شعرت فجأة بأنني أعرف هذا الوجه تماماً، وبأنني أرتبط معه بذكرى يجب ألا تمحى، نعم، أنا أعرف تينك العينين الحادتين الغاضبتين الصامدتين للحظة اختيار مخيفة.. لكن أين تقابلنا؟ متى؟ كيف؟

لقد بدا كل شيء مغلفاً بضباب متكاثف، ورغم ذلك فقد كانت ثمة ذكرى تلتصع من بعيد، إلا إنها كانت غامضة مغرقة في البعد، هناك سد كثيف يحول دون رأسي وتلك الذكرى، وكان لابد من

التذكر. فعينا البومة الغاضبتان تبعثان دفقة إحساس حاد في نفسي
بأننا قد تعارفنا قبل الآن.. ولكن متى؟ وكيف؟ وأين؟

نهضت من فراشي، إذ تيقنت استحالة النوم تحت تلك الوطأة،
وأضأت المصباح، ثم وقفت أمام الصورة الملونة: العيون هي، لم
تزل، تطل غاضبة واسعة مغروسة في الوجه المفلطح العجيب.
والمنقار المعقوف كنصل عريض لمنجل أسود، لم يزل، يطبق بعنف
على ضرب من الاشمتزاز الساخر، والريش الرمادي الملون بحمرة
وقحة يتجمع خصلاً كصوف قذر بعد أن ابتل بماء المطر.

سقطت الذكرى، بعد فترة، مدوية صاخبة إلى رأسي فأورثتني
دواراً مفاجئاً، والتمعت خلال الضباب المتكاثف كل الأشياء التي
ذكرتني بها البومة المخيفة، وبدا لي أننا فعلاً نعرف بعضنا جيداً.



كان ذلك قبل عشر سنوات على وجه التقريب، كنت في قرأتي
الصغيرة التي تتساند دورها كتفاً إلى كتف فوق حاراتها الموحلة،
أذكرها الآن أشباحاً تتلامح منذ زمن بعيد، كنت طفلاً آنذاك، وكنا
نشهد، دون أن نقدر على الاختيار، كيف كانت تتساقط فلسطين

شبراً شبراً، وكيف كنا نتراجع شبراً شبراً. كانت البنادق العتيقة في أيدي الرجال الخشنة تمر أمام أعيننا كأساطير دموية، وأصوات القذائف البعيدة تدلنا أن معركة تقع الآن، وأن - ثمة - أمهات يفقدن أزواجهن، واطفالاً يفقدون آباءهم، وهم ينظرون عبر النوافذ، صامتين، إلى ساحة الموت.

لا أعرف في أي يوم وقع الحدث، حتى أبي أيضاً نسي ذلك، كأن اليوم المشؤوم، كان أكبر من أن يتسعه اسم أو رقم، لقد كان في حد ذاته علامة من علائم الزمن الكبيرة، من تلك التي توضع في مجرى التاريخ كي يقول الناس « حدث ذلك بعد شهر من يوم المذبحة ».. مثلاً.. كان يوماً من تلك الأيام لا شك، وإلا لكنا حشرناه تحت رقم أو تحت اسم أو تحت عنوان.

لقد بدأ الهجوم قبيل منتصف الليل، وقال أبي الشيخ لأمي فيما هو يتنكب بندقيته الثقيلة:

- إنه هجوم كبير هذه المرة..

ولقد عرفنا، نحن الصغار، من أصوات الطلقات أن هناك أسلحة جديدة، وأن هنالك هجوماً من ناحية أخرى لم تطرق قبل الآن.. وأن قنابل حارقة قد سقطت في وسط القرية فأحرقت بيتاً وأطفالاً، وحين نظرنا من خصاص النافذة الواطئة شاهدنا كمن يحلم - أشباح

نسوة منحنيات يسحبن جثثاً إلى داخل القرية، وكان يستطيع المستمع بإمعان أن يلتقط صوت نشيج مخنوق: إحداهن - هكذا كانت تشير أُمي - فقدت زوجها وصمودها في آن معاً.

بعد ساعة من الهجوم المباغت، تراجع رجالنا، كانت جهنم قد صعدت إلى ظهر قريتنا، وبدا لنا أن النجوم أخذت تتساقط على بيوتنا، وقالت امرأة مرت تحت شباكنا تسحب جثة وتلهث:
- إنهم يقاتلون بالفؤوس..

وقتال الفؤوس لم يكن غريباً على رجال قريتنا ، فلقد كانت الفأس هي سلاح الواحد منهم بعد أن تتقيأ بندقيته كل ما في جوفها، فكان يحملها على كتفه زاحفاً فوق الأشواك الجافة، ثم يشاهد المحاربون من خنادقهم الرطبة شبح إنسان راکع، يرفع كلتا يديه فوق رأسه ما وسعه ذلك، وبين كفيه تتصلب فأسه الثقيلة، ثم تهوي الفأس، ويتصاعد صوت ارتطام عريض مخنوق، وابتلع الظلام أنة ممدودة يعقبها شخير عنيف، ثم يصمت كل شيء.

لقد بدأ قتال الفؤوس إذن، هذا يعني أن الرجال قد تلاحموا، وأن جثثاً كثيرة قد ضاعت في خطوط الأعداء مطبقة أكفها بتشنج عنيد على الفأس، وازدحمت أنوفها براحة مطلقة على التراب الطيب، ومستلقية بهدوء.

بدأت قريتنا تنكمش، ولم يعد هناك أي عمل للشيوخ غير أن يعودوا إلى بيوتهم، ولقد شاهدنا أبي يعود منهكاً، ولكنه لم يضع أية لحظة، بل توجه لتوه إلى درج عتيق كان محظوراً علينا الاقتراب منه وتناول مسدساً صغيراً دفعه لأمي بعد أن تأكد من حشوه، وأشار لها بعينه تجاهنا، أنا وأخوتي، وقفل عائداً إلى الشارع.

كانت أختي الكبيرة قد فهمت كل شيء، فأخذت تبكي دافئة رأسها في كفيها، بينما ارتعشت أمي وهي تحمل المسدس على راحتها وتتوجه إلى النافذة، في تلك اللحظة قرع باب عتيق كان يفصل بيننا وبين جيراننا - ولم نكن نستعمل ذلك الباب على الإطلاق - وصاح صوت العجوز، جارنا، راجفاً :

- افتحوا.. افتحوا..

أز الباب أزيزاً رفيعاً إذ سحبته أمي، فاندفع العجوز إلى الغرفة خائفاً، وأجال بصره فينا، ثم توجه لأمي وهمس في أذنها كلاماً أبدت استنكارها له، ثم عاد فهمس بحماس أكثر. فترددت أمي ثم هزت رأسها موافقة، وأشارت إلي أن أتبع العجوز إلى بيته..

دخلت خلف العجوز إلى غرفة دافئة مفروشة ببسط ملونة. وأخذت أراقبه فيما هو يحرك ستارة، ويتناول من ورائها صندوقاً صغيراً يضعه برفق بين ذراعي، شعرت بأن الصندوق أثقل مما يبدو

فتساءلت برأسي وأتاني الجواب من فمه الأدرد:

- هذه قنابل كان المرحوم ابني خبأها هنا.

وهز رأسه بأسى، وانتبهت لكلمة «المرحوم» التي لم تكن تستعمل قبل ذلك في هذه الغرفة، ولا في بقية الغرف، فراودني شعور بالخوف بينما استمر الشيخ:

- يوشك اليهود أن يدخلوا القرية.. وإذا وجدوا هذه عندي قامت قيامتهم!

وتباطأت كلماته، وبدأ يحرك إصبعه في وجهي حركة تحذير:
- أنت صغير، وتستطيع أن تخترق الحديقة.. أريدك أن تدفن هذا الصندوق في آخرها.. تحت شجرة التين الكبيرة.. ربما احتجنا له فيما بعد..

سرني أن أشارك بعمل بطولي، فاندفعت إلى خارج الباب، وعندما وجدت نفسي في الطريق إلى الحديقة تملكني خوف رهيب، وحدثتني نفسي، وهي ترتجف، أن ألقي حملي الثقيل وأقفل عائداً أدراجي، ولكنني تنبعت إلى أن أُمي لا شك تطل من نافذتها وتشاهدني، كانت السماء شبه مضاءة بقنابل اللهب، وكانت الشرارات تلتمع في الأفق راسمة خطوطاً مقطعة منتهية بضوء ساطع، وفي لحظات الصمت المخيفة التي كانت تتبع كل دفقة نار كانت تُسمع

أصوات مَن تبقى من رجالنا تغني على طريقتهما في المعارك غناء
يبدو كأنه يتصاعد من عالم آخر، عالم يموت فيه الإنسان وهو يعرض
على بقية الأغنية الحلوة، ثم يتمها هناك في السماء.

اخترقت الحديقة منحنيًا، وكانت الطلقات تلمس أعلى الشجر
بصغير خافت، وكانت التينة العجوز تنتصب في آخر الحديقة..
عندما وصلتها شعرت بحماسة غامضة، وأنشأت أحفر في الأرض
مستعينةً بعودة صلبة، وفي اللحظة التي أسقطت فيها الصندوق
بالحفرة، سمعت صيحة حادة في أعلى الشجرة.. وتملكني خوف
أسقط ركبتي إلى الأرض وأخذت أحرق مرتجفًا عبر الأغصان.. ثم
شاهدتها، على ضوء اللهب المتصاعد في سماء قريتنا، تقف هناك
وتحدق إلي بعينين واسعتين غاضبتين أخفى أعلاهما انحدار
الحاجب عليهما.. كان منقارها معقوفًا كمنجل أسود ذي نصل
عريض، ورأسها الكبير كصورة قلب رمزي مفلطح يتمايل بانتظام،
كان ريشها مبتلًا بماء المطر الذي انهمر في أول الليل، وكان يومض
في عيونها ذلك الغضب المشوب بخوف غريب، وكانت تحدق إلي
عبر الظلمة، تحديقًا متواصلًا لا يرتعش.

هدأ الرعب في صدري، وعدت إلى عملي حتى إذا أتممته
أنشأت أنظر إلى البومة بإمعان، كانت ما تزال على وضعها الأول،

وكان ضوء القنابل المباحث يعطي لعيونها ظلالاً مرعبة، وبدت لي أنها مصرة على وقوفها المتحدي، وأنها سوف تبقى رغم كل الرصاص والموت.

عدت أدراجي إلى البيت ببطء وهدوء، فلقد زال عني كل خوف كنت أحسه قبل أن أراها.. ثم لم أملك إلا أن أتوقف هنيهة وأعود إلى النظر إليها، كانت لا تزال تحرك رأسها المفطح بتحذير إنساني عميق، وعلى إيماضة قبلة بعيدة، شاهدت في عينيها ذلك التحدي الباسل، الخائف بعض الشيء، ولكن الصامد لضغط لحظة اختيار واحدة بين الفرار والموت.

أوشك الصبح أن يطلع وأنا في وقفتي أمام الصورة الملونة المملوكة على الحائط العاري.. لقد أنهكتني الذكرى، ولكنني أحسست بارتياح غريب فجأة، فهأنذا ألتقي البومة الغاضبة بعد غيبة طويلة! وأين؟ في غرفة منعزلة مترامية تتنفس بوحدة مقبنة، بعيداً عن قريتي التي كانت تعبق برائحة البطولة والموت، وكانت البومة لا تزال مملوكة على الحائط تحديق في، عبر زمن متباعد وينحدر من منقارها المعقوف صرير حاد:

- ايه أيها المسكين.. هل تذكرني الآن؟؟

الكويت - ١٩٥٩

شيء لا يذهب

القطار اللاهث يصعد الطريق الجميل إلى طهران... قال لنا مفتش
القطار قبل أن يغادر عبدان أن علينا أن نحرس أنفسنا، فالطريق
طويل، واللصوص ينتهزون فرصة حلول الليل.. كي يمارسوا طريقتهم
الخاصة في الحياة..

قررت أن لا أنام.. فثمة كتاب ملون أستطيع أن أقرأه في الليل...
كتاب ألفه إنسان كان يحس أكثر من اللازم، ويفهم أكثر من اللازم..
ومقصورتني في القطار متواضعة.. إيرانية جميلة تجلس في المقعد
المقابل تفحصني كي تكتشف في اللص، لم تطمئن إلي بعد..
وعجوز، قد يكون أباه، سقط في النوم قبل أن يخفق القطار بالرحلة
الطويلة... وصديق هادئ يجلس إلى جانبي يستعرض الطريق..
أحسن ما في هذا الصديق أنه لا يثرثر، وإذا تكلم... فاللغة عربية..
أحسن طريقة كي أحرس نفسي ومنّ معي، كما أوصانا المفتش

السمين الذي يعرف سبع كلمات عربية، أن لا أنام... لقد أبدى المفتش السمين قلقه علي... فأنا نحيل ذو وجه أصفر قد لا أستطيع أن أسهر.. ولكنني قلت له أنني أستطيع.. ولم أفهم نكته الإيرانية التي ضحك لها طويلاً وهو يغمز مشيراً إلى الحسنة.. بينما احمرّ وجه الأخيرة.. وصعدت القاطرة مع والدها العجوز..

قال لي صديقي إن وجه الإيرانية لا يعجبه بتاتاً.. وإنها تشبه الدكتور مصدق.. الذي لو كان امرأة لما كان بديعاً قط... وهكذا اعتقد صديقي أنه إذا سنع له الحديث مع الحسناء فسيكون سيد الفرصة بلا غريم... بعد أن اطمأن إلى أنه أقنعني بملاحظته...

كنت في الحقيقة لا أرغب في الكلام.. كان الكتاب بديعاً.. طباعته أنيقة، وصوره فذة.. وكلماته ليست سوى غطاء بثر سحيقة، إذا ما تمكنت من رفعه، فسوف لن ترى القاع البعيد مطلقاً..

كان الكتاب يحمل اسم عمر الخيام.. وقيمته بالنسبة لي هي أنه أشير مرة إلى رباعية فيه بالقلم الرصاص.. وضعتها الفتاة التي أحببتها.. الرباعية تقول:

«آه أيها الحب .. لو أستطيع أنا وأنت أن نتفق مع القدر..

كي ندمر هذا الطابع الوحيد للعالم..

إلى قطع صغيرة صغيرة..

ثم نعيد بناءه من جديد.. كما تشتهي قلوبنا..»
فتحت على تلك الصفحة دون أن أشعر.. فرائحة الطريق
الطويل بدت مثيرة.. كانت الدائرة المرسومة حول الرباعية بالقلم
الرصاص تكاد تختفي. لقد مرت سنوات ثمان على اليوم الذي
رسمت فيه هذه الدائرة.. ورغم ذلك فأنا لن أنساها مطلقاً..
لا أريد أن أنام في القاطرة.. لا لأحرس نفسي.. بل لأستعيد
اللحظات الضبابية لما حدث قبل ثماني سنوات.. لقد بدأت العتمة
تهبط.. وبدا لوهلة أن صوت العجلات المنتظمة.. موسيقى غريبة
تدفع بهذا الرأس المرهق.. إلى الماضي..



اطمأنت الإيرانية الحسنة أخيراً إلى أنني لست لصاً، أو لست
لصاً خطيراً على الأقل.. فاستسلمت لإغفاءة قلقة.. وبقي صديقي
يحرق في الطريق المعتم دون أن يكف عن التحديق في الحسن
النائم أيضاً..

كانت ليلى تطلب مني ألا أنظر إليها عندما تنام.. كانت تعتقد
أن تقاطيع وجهها تكون صادقة عندما تفقد التحكم بها.. وهي لا

تريد أن أعرف شعورها الحقيقي تجاهي.. تخاف أن أصبح مغروراً..
لم يكن اسمها ليلي.. كنت أدعوها ليلي لأنها كانت تدعوني
«قيساً»..

دارنا في حيفا لم تكن بعيدة عن دارها كثيراً.. خلف أول
منعطف يقع على يمين دارنا، ليس عليك سوى أن تعذ أربعة أبواب
ثم تصعد بناية بيضاء إلى الطابق الثالث، فستجد بيت ليلي لا
محالة.. إذا لم تكن هذه البناية قد تهدمت بعد قصف حيفا، فلا
شك أن ليلي ما زالت تسكن هناك..

لقد خرجت من حيفا قبل أن تسقط في يد اليهود.. ولم أمسك
بندقية في حياتي قط.. كان الشارع الطويل الذي ينصب فيه شارعنا
هو ميداني الوحيد.. كنت مشهوراً في ذلك الشارع بأنني إحدى
علاماته، وكان شباب حينا يقولون:

- إذا أردت ان ترى خيري، ففتش على أجمل فتاة في الشارع
تجده خلفها.

قالت لي ليلي بعد أن تعرفت عليها جيداً:

- أنت رجل مائع يا خيري.. ولكنك لست هكذا في حقيقتك..
ولهذا أعتقد أنني سأحبك.

كانت ليلي من نوع آخر.. ولكنني لم أكن أعرف ذلك في أيام

تعارفنا.. كنت أعرف أنها تخفي علي شيئاً ما.. ولكنني لم أكن أعلم أن تلك الفتاة الناعمة.. كانت تقوم بعمليات نفس، يعجز عن تصويرها رجل متوسط الشجاعة. ولم تقل لي ذلك مطلقاً إلا بعد الحادث المشؤوم الذي وقع.

في الحقيقة، إنني لم أكن أعرف من هو عمر الخيام، وهي التي علمتني عنه أشياء كثيرة.. كنت أعجب بصور كتابه أكثر من إعجابي برباعياته التي كنت أعتقد أنها هذيان إنسان مريض بنزلة صدرية حادة..

الحب العنيف، الذي كانت تسميه دوامة غوص في مستنقع، لم يستطع أن ينسيها القضية.. بل كانت تتعذب في سبيل أن تفهمني أن حياتنا ليست شيئاً.. وأنها تبلغ ذروة قيمتها لو قدمت من أجل سعادة آلاف غيرنا...

وعندما فهمت أول رباعية من رباعيات الخيام، قلت لليلي إن هذا الرجل إنسان انهزامي.. كنت سعيداً بهذا الاكتشاف، وقلت في ذات نفسي يومها أن ليلي ستكون فخورة بي... ولكنها لم تقم بما يدل على أنها فخورة.. قالت لي وهي تشير إلى الكتاب :

- الإنسان الذي يحس أكثر من اللازم، خير من الإنسان الذي لا يحس بالمرة...

هذا «الإنسان الذي لا يحس بالمرّة» استطعت أن أفهم مؤخراً أنه أنا.. ولم أغضب يوم أكتشفت ذلك.. إذ كانت قصتي مع ليلي قد انتهت يومذاك.

لكن ليلي تغيرت فيما بعد.. إذ إنه في الوقت الذي كان يناضل فيه بعض الناس، ويتفرج «بعض» آخر، كان هنالك «بعض» أخير يقوم بدور الخائن..

وبواسطة هذا النوع الأخير من الناس، قبض اليهود على ليلي وهي تحاول القيام بعمل لم أتمكن من معرفته قط. وعادت بعد تسعة أيام كاملة.. ولم تستطع أن تحفظ حياتها إلا بعد مجموعة صُدف لا أحد يدري كيف حدثت..

اللحظة التي قابلتها فيها بعد عودتها من «الهادار» لم تزل راسخة في ذهني.. كنت أتوقع أن أراها تبكي، أو ترتجف.. إذ كنت قد سمعت من أفواه كثيرة قصص الليالي الفظيعة التي أمضتها في السجن.. ولكنني عندما رأيته كانت هادئة هدوءاً مخيفاً.. لم يعد في عينيها أي بريق.. فقط وجه حزين صامت.

قالت لي بصوت منخفض هادي:

- لقد ضاعوني طوال تسعة أيام..

لم أستطع أن أقول شيئاً.. بل لقد خيل إلي أنها قالت: لقد كنت

أصلي طوال تسعة أيام. شعرت أن الكلمة التي يمكن أن أواسيها بها شيء حقير.. لا قرار لحقارتها أبداً.. وانتشلت الموقف بكلمة أخرى: - يحسن بك أن تتركني.. أنا امرأة مهترئة..

كان القطار قد وصل إلى محطة تقح في ثلث الطريق.. وبدأ ينز أزيزاً مزعجاً كي يقف.. صحت الإيرانية الحسناء وبدأت تتزين من جديد، ما زال العجوز نائماً، وصديقي يحدق بالطريق. لقد مرت أمامي أشجار صغيرة... ثم بدأ رصيف المحطة مضاء بأنوار باهتة ينسحب أمام النافذة...

على الرصيف لمحت طفلاً في السابعة من عمره تقريباً، كانت ملابسه ممزقة، ولكنها نظيفة.. كان يعد القاطرات بأصبعه وهي تمر من أمامه ببطء.. كان يعد باللغة العربية..

أشار صديقي إلى الطفل... وأصغينا معاً إلى صوته الدقيق. - ستة.. سبعة.. ثمانية..

هز صديقي رأسه وقال باقتضاب:

- عربستان...

وتأسف قليلاً، ثم هبط من القاطرة يبحث عن طعام. الطفل الأسمر جميل الطلعة.. كان يبيع أشياء للتسلية، ولكنه بدا أنه نسي وظيفته وهو يراقب القطار الطويل.. وكان يبدو منهكاً..

استدعيته إلى نافذتي وسألته بالعربية:

- ماذا تبيع؟..

قال وهو يتسلق النافذة:

- وأنا عربي أيضاً..

- ماذا يشتغل والدك؟

- إنه يبيع الصحف هناك..

بدأ القطار يخفق من جديد... الطعام الذي أحضره صديقي لي، أكلته الإيرانية، لم أكن أرغب في الأكل... كان الكتاب ما زال مفتوحاً على الرباعية التي يلفها خط يكاد يختفي بالقلم الرصاص. وقرأت الرباعية من جديد، وبصوت عالٍ جعل الإيرانية تتوقف عن المضغ:

« آه أيها الحب، لو أستطيع أنا وأنت أن نتفق مع القدر على تدمير هذا الطابع البائس الوحيد للعالم إلى قطع صغيرة صغيرة.. ثم نعيد بناءه من جديد كما تشتهي قلوبنا..»

لم أكن قط أستحق ليلي.. كانت أحسن مني بكثير، كنت جباناً، أخاف من الموت... ورفضت أن أحمل سلاحاً كي أدافع عن حيفا.. كنت في رأس الناقورة عندما قالوا إن حيفا سقطت في يد اليهود، ولا أدري لماذا تذكرت لحظتذاك جملة قالتها ليلي قبل أن أغادر حيفا:

- إنني لا أستطيع أن أنسى التسعة أيام القاسية.. ولكنني أريد أن أستمري في.. الدفاع عن حيفا.. أنا أعرف أنني قدمت شيئاً أكثر من حياتي.. ولكنني أريد أن أقدم حياتي نفسها فهذا أفضل. باستطاعتك أن تغادر حيفا، أن تهرب من حيفا.. ولكنك في يوم سيأتي لأبد من أن تصحو.. وتكتشف.. وتندم..

ليلى الحزينة.. البائسة... بقيت في حيفا ورفضت أن تخرج منها.. وقالت لجيرانها عندما أتوا ليجروها معهم أنها فقدت كل شيء ولا تريد أن تفقد ماضيها الجميل في حيفا الجميلة... تريد أن يبقى لها شيء لا يذهب...

لقد مضى زمن طويل على اليوم الذي خرجت فيه من حيفا.. وأشعر اليوم أنني لم أكن أستحق ليلى مطلقاً.. بل لم أكن أستحق حيفا نفسها.. لماذا اهتمت هذه الإنسانية النبيلة بإنسان جبان مثلي؟.. لماذا تلاحقني هذه الإنسانية الرائعة طوال ثماني سنوات؟ لماذا تلح على رأسي كما تلح صفارة القطار قبل أن يدور حول المنعطف؟

صحا العجوز من نومه الطويل.. وحدث بعيون ضيقة كأنها شقوق أرض جافة بأنحاء القاطرة.. وابتسم في وجهي، ثم هتف بعربية مكسرة وهو يشير إلى الكتاب الملقى على ركبتي:

- عمر الخيام؟

هزرت برأسي وتركته يلتقط الكتاب ويتفرج على صوره..

كان رفاقي يتهمونني دائماً بأنني من عشاق الخيالات. وعندما قلت لهم وأنا في الكويت أنني أريد أن أذهب لإيران كي أضع باقة ورد على قبر الخيام.. ضحكوا جميعهم وقالوا:

- إنه يريد أن يعيش تجربة عنيفة يوهم نفسه فيها أنه يحب! شعرت بأنني إنسان لا يعيش على أرضه، إنسان كان يحب أن يبقى طفلاً كما كانت تقول ليلي.. وبدا لي في لحظة أن ماضي شيء مخجل في الحقيقة.. ثماني سنوات أجتر ذكرى ليلي كأنها إنسانة صنعتها فقط لأذكرها.. تراها كانت موجودة حقاً إنسانة اسمها ليلي؟ أم أنني صنعتها ثم صدقتها؟

فتح صديقي نافذة القاطرة.. فصفع وجهي هواء بارد، وشعرت باللمحة نفسها أن ليلي لا يهمها مطلقاً أن أضع باقة ورد سخيفة على قبر عمر الخيام.. كي أوهم نفسي بأنني ضحية حب عنيف.. لماذا أصر على الاحتفاظ بكتاب الخيام؟ إن أحداً لا يعرف الحقيقة.. تراني أريد من الكتاب أن يوهم الآخرين بأنني ما زلت مرتبطاً بحيفا؟

أعاد العجوز كتاب عمر الخيام شاكراً، وحينما سقط الكتاب

على ركبتني انفتحت صفحاته على الرباعية المحاطة بالخط الباهت
لقلم رصاص قديم..

لم تستطع ليلى أن تغيرني.. شعرت هذا بوضوح الآن.. إنسان
لا فائدة منه. هذا كل شيء... باقة ورد على ضريح إنسان ميت..
شيء يذهب، لقد قالت لهم أنها تريد أن يبقى لها شيء لا يذهب..
أزت العجلات وهي تدور حول منعطف واسع، وصفر القطار..
ثمة مقبرة في الأفق، وشواهد القبور البيضاء مغروسة في التراب
كالقدر.. باردة ، قاسية، ولا تذبل.. ترى هل يوجد فوق قبرها رخامة؟

دمشق-١٩٥٨

منتصف أيار

عزيزي إبراهيم

لست أدري لمن سوف أرسل هذه الرسالة. لقد كان عهدي لك أن أحمل إلى قبرك في كل منتصف أيار بعض أزهار الحنّون، فأنثرها فوقه.. وها قد وصل منتصف أيار دون أن أجد ولو زهرة حنّون واحدة.. ولو وجدتها.. فكيف لي أن أصل إلى قبرك كي أعطيها؟.. لقد مضت اثنتا عشرة سنة.. وأعتقد أنك بعدت كثيراً عن كل شيء.. فكما أنت تغور إلى أعماق الأرض وتفتتت، فأنت أيضاً تغور في ذاكرتنا، وتلاشي. ملامحك، حتى ملامحك، لم أعد أذكرها جيداً.. أما صوتك فلست أعرف كيف كان.. عيونك، لم أعد أذكر كيف كان بريقها.. ويصعب علي كثيراً أن أتصور حركتك.. كل الذي بقي منك في ذهني: جسد جامد.. كفاه فوق صدره.. وخيط رفيع من الدم يصل بين طرف شفّتيه وأذنه، وأذكر - بوضوح هنا - كيف حملوك وألقوك في الحفرة بملابسك كلها.. ثم أهالوا التراب، بينما مزق

صمود رفاقك صوت نحيب مجروح أخذ يعلو خلفنا شيئاً فشيئاً، ثم صمت...

والسؤال الآن هو: لماذا أكتب لك؟.. ألم يكن الأجدر بي، وقد فشلت في حمل أزهار الحنون إلى قبرك.. أن أستمّر في الصمت الذي بدأ منذ اثنتي عشرة سنة؟ يبدو لي أنه من المستحيل أن أستمّر في صمتي... إن منتصف أيار يضغط على صدري وكأنه قدر مجنون، أخطأ ذات مرة.. فقتلك بدل أن يقتلني..

إن خيوط القصة بدأت تنحل في رأسي.. وأخشى أن أنساها.. هل تصدق؟ إني - حقاً - أخشى أن أنساها! وربما نسيته أنت.. فما الذي يعنيك منها الآن؟... ولكنني أريد أن اساعدك، وأساعد نفسي في نسج خيوطها من جديد.

معظم القصص ليس لها بداية.. ولكن الغريب أن قصتنا معاً لها بداية واضحة.. بل أكاد أقسم أن بدايتها من الوضوح بحيث تستطيع أن تعتبرها فصلاً مستقلاً عن جريان بقية أحداث حياتنا..

كان الوقت بُعيد العصر بقليل، وقد وقفنا - أنت وأنا - إلى جانب الحجر الكبير الذي كان يشكل مقعداً أمام بيت جدك... كنا بدأنا التعلم على استعمال الأسلحة.. وحتى تلك اللحظة، كانت أهدافنا علب الأطعمة المحفوظة الفارغة.. وصفائح الزيت العتيقة.

وإذا لم تخني ذاكرتي أستطيع أن أقول أننا استعملنا « ضوء الكاز »
كهدف لرصاصنا مرتين أو ثلاث.

كان الوقت عصراً.. نعم، سوفؤكد على هذا مرة أخرى لأن
الصورة لا يمكن أن تكتمل عناصرها إلا إذا دخل إليها ضوء العصر..
لقد وقفنا إلى جانب الحجر الكبير، ثم سمعت صوتك:

- ألسنتريد الانتقام ؟

وتبعتسؤالك سلسلة من الضحكات القصيرة قبل أن أسأل
بدوري:

- مم؟

ورفعتأصبعك تجاه الحائط المقابل.. وأشرت إلى شيء ما ثم
قلت والضحكة ما زالت تمسح كلمائك:

- من القط الذي سرق زوج حمام من البرج..

وضحكت أنا الآخر.. وتذكرت كيف استطاع هذا القط المنقط
الملعون أن يصل إلى برج الحمام في الحديقة في ليلتين متتاليتين
ويسرق منه زوجاً من أجود الحمام الذي يحرص جدي، ونحن، على
تربيته.. وقبل أن أصل إلى قرار سمعتك مرة أخرى..

- سوفأقتله أنا إذا خانتك شجاعتك..

ورفعتبندقيتك إلى كتفك.. وأطلقتها، ومن خلال الدخان ذي

الرائحة الغريبة، شاهدنا القط المسكين يقفز مذعوراً إلى الوراء.. ثم يطلق ساقيه للريح إلى سور الحديقة المجاورة، ويقف فوقه متحفزاً يحدق بعيون مدهوشة إلى حيث خدشت الرصاصة جزءاً من الحائط العتيق.. لست أدري أي شيطان جعلني أهتف:
- أخطأته .. سوف أجرب حظي..

إنني أذكر كيف صوبت إلى رأسه.. وحينما رأيته مقعياً على السور من خلال انفراج علامة التصويب في مقدمة بندقيتي، شعرت برجفة.. واضطرب التصويب لفترة.. كانت عيونه تحدق -ما تزال- حواليه بجزع ودهشة.. بينما أخذ ذيله يضرب الأرض بانتظام، وأذناه تنتصبان وتميلان بحثاً عن الخطر.. وفي لحظة ثانية رأيته تماماً في منتصف علامة التصويب.. فضغطت الزناد.. لقد لطمته الرصاصة في وجهه.. فانقلب وتشنجت أرجله في الهواء تتحرك راجفة.. ثم هوى إلى جنبه وأخذ الدم يتدفق..

وقدتني إليه، وقلبته بمقدمة سلاحك.. وهتفت..
- إصابة رائعة.. في منتصف رأسه.. لقد قطعت سلسلة أفكاره..
ولكني كنت قد بدأت أتقيأ.. ثم لزمت الفراش أكثر من أسبوعين..

وحينما زررتني أنت بعد فترة.. سألتني ضاحكاً:

- ماذا؟ القط المنقط اللص.. يجعلك تذوي هكذا؟ شيء مضحك! ألم تُعدّ نفسك لخوض معارك نقتل فيها رجالاً لا قطعاً؟ شعرت بالعار.. ولست أدري كيف تكونت الكذبة تلك الساعة.

- القط؟ أنت مجنون.. لقد كنت أقتل قطعاً بالحجارة وأنا طفل!.. كل ما هنالك أن كفف البندقية انزلق بعد الإطلاق، فلمس حلقي.. وهذا هو السبب الذي جعلني أتقيأ. ثم أنني كنت مريضاً من قبل..

هل انطلت عليك الكذبة ؟ لست أدري إلى الآن.. ولكن الذي طمأنني يومها، أنك عدت إلي في المساء.. وهمست في أذني أن أعد نفسي لهجوم ما.. خلال يومين..

وفي السيارة التي حملتنا إلى المستعمرة المجاورة.. كنت تغني كالعادة.. بينما كنت ما أزال أعاني من وطأة الحادث.. ولكزتي فجأة ملفتاً نظري إلى الحقول وقد بدأ أيار يعطيها لون حياة جديدة:

- هذا الحنّون.. لقد كنا نفتش داخله عن حشرات ملونة لطيفة.. وكنا نقطع ألف زهرة حنّون حمراء كي نجد حشرة واحدة.. يا سلام.. سوف.. أكون سعيداً لو عاهدتني على أن تحمل إلى قبري في كل أيار باقة حنّون.. أتعاهدني؟..

أنت سخيف. ولكن إذا كان عهدي سوف يسكتك فإنني أعاهدك..

ماتت الضحكة على شفتيك، وضممت بندقيتك إلى صدرك،
وقلت بصوت واه، ولكنه عميق:
- شكراً...

لقد نزلنا، عند الظهر، في حقول المستعمرة.. كانت الخطة
جريئة، ولكنها ممكنة.. احتلال البيوت المتطرفة من المستعمرة ثم
نسفها.. والعودة إلى بلدتنا من جديد...

ولكن الذي حدث كان غير ذلك.. لقد فاجأنا اليهود في حقولهم،
ونشبت معركة ضارية.. كنت إلى جانبك.. وكنت أطلق نيران سلاحي
كيفما اتفق، فلسنا نرى أحداً نضوب عليه.. وكنا - خلال ذلك -
نستمر في الزحف بين الأشواك والزرع.. هل كنت خائفاً يومها؟
لست أذكر الآن.. ولكن ذلك اليهودي الذي انتصب أمامنا واقفاً على
حين فجأة، شل تفكيري.. كان يحمل قبلة يدوية ألقاها فوقنا..
وسمعت صوتك والدخان يكاد يعمينا:

- اقتله.. لقد علق رصاص مشطي...

- وانجلى الدخان.. كان ما يزال واقفاً هناك يحمل قبلة ثانية
ويفتش بين الزرع عنا.. ورأيت من خلال علامة التصويب يقف
هناك.. بعيون مذعورة.. ومررت لحظات دون أن يستطيع أصبعي شد
الزناد.. كنت أرتجف.. وبقي الهدف واقفاً في منطقة تصويبي.. كنت

أشاهده من خلال أداة التصوير.. ومن خلال هذه الأداة، شاهدته
يكشفك.. ويلقي فوقك بقنبلته الثانية ويولي الأدبار..

وهكذا أرجعناك إلى بلدنا حيث دفنوك بكامل ملابسك كما
يجب أن يدفن الشهداء.. وكانت أمك تبكي خلف رفاقك... بينما
أخذت أنا - في غمرة عاري - أزرع فوق التراب الندي باقة حنّون
جمعناها في طريق عودتنا.

لقد مر اثنا عشر عاماً على ذلك اليوم... وأنا ملاحق من عاري..
كل أيار يثقل صدري ككابوس لا يرحم..

والسؤال الذي يجار في رأسي.. هو: لماذا أذكرك الآن.. وأكتب
لك.. أما كان الأجدر بي أن أستمر في صمتي؟؟

كلا.. إني لا أستطيع.. الأيام تمر.. وأنت تغور في الرمل.. وأخشى
أن أنساك.. إني لا أريد أن أنسى، رغم كل العذاب الذي يحمله
التذكر.. فقد يستطيع هذا العذاب أن يجعلني أحس يوماً بمدى كم
هو ضروري أن اعود إلى قبرك.. فأنثر فوقه بعض أزهار الحنّون..

لست أعرف مبلغ تطوري الآن.. هل أستطيع أن أقتل يهودياً
دون أن أرتجف؟ لقد كبرت.. وجعلتني الخيمة أشد خشونة.. ولكن
كل هذا لا يعطيني يقيناً..

يقيني الوحيد.. هو أنني أشعر بالعار ملتصقاً بي حتى عظمي..

هل يكفي هذا؟؟ أعتقد أنه يكفي.. فالقط الذي قتلته لم يفعل سوى أنه سرق زوج حمام يأكله.. وكان السبب هو جوعه حتماً... أما الآن فأنا بإزاء جوع آلاف من الرجال والنساء.. أقف معهم أواجه لصاً سرق منا كل شيء..

أ يكون هذا هو السبب الذي جعلني أنفك عن صمتي.. كي أزيد التصافي بك؟.. سوف تغفر لي اعترافي.. لقد اكتشفت أنا - كما يجب أن تكون اكتشفت أنت منذ بعيد - كم هو ضروري أن يموت بعض الناس.. من أجل أن يعيش البعض الآخر.. إنها حكمة قديمة.. أهم ما فيها الآن.. أنني أعيشها.

الكويت - ١٩٦٠

كعك على الرصيف

أتكون محض مصادفة غريبة أنني التقيته، الآن، في المكان نفسه الذي شاهدته فيه أول مرة؟

لقد كان مقرفصاً هناك؟ كأنه لم يزل كذلك حتى اليوم: بشعره الأسود الخشن، وعينييه اللامعتين ببريق رغبة يائسة، مكباً على صندوقه الخشبي يحدق إلى لمعان حذاء باذخ.. لقد استطاعت صورته أن تحفر نفسها في عظم رأسي قبل عام واحد، حينما رأيته في تلك الزاوية بالذات، لا شيء غير عادي، سوى أنني - أنا نفسي - كنت أحتل هذه الزاوية قبل عشر سنوات، حينما كانت المحنة على أشدها، وكانت طريقي في مسح الأحذية تشابه طريقته إلى حد بعيد، كان الحذاء بالنسبة لي هو كل الكون: رأسه وكعبه قطبان باردان، وبين هذه القطبين كانت تتلخص دنيائي.

وقبل عام، حين مررت به، قاءت شفتاه عرضاً ألياً دون أن تنظر

عيناه إلى الحذاء:

- أستطيع أن أحوله إلى مرآة، يا سيدي..

وبدافع من رغبة خاصة، تعوضني عن شهور طويلة من الأسى، ركزت قدماً على حذبة الصندوق حيث تيسر لي أن أشاهد خطأ عريضاً من العرق يبلل ظهر قميصه الأزرق المتسخ، وكانت عضلات كتفيه الضامرة الصغيرة تنقبض وتنبسط، وكان رأسه يهتز بانتظام..

- هذا حذاء رخيص..

لم أحس الإهانة على الإطلاق، فلقد كان شعوري حينما كنت أشاهد حذاء رخيصاً يشابه شعوره، ولكنني لم أكن أعبر عنه بهذه السذاجة، كان الحذاء الرخيص يشعرني باقتراب غامض بيني وبين العالم.. ورغم ذلك، فلقد رغبت في تغيير الحديث..

- كم عمرك؟

- إحدى عشرة سنة..

- فلسطيني؟

هز رأسه فوق الحذاء، دون أن يجيب، وأحسست بأنه يخفي شعوراً بخجل صغير..

- أين تسكن؟

- في المخيم.

- مع أبيك؟
- لا، مع أمي..
- أنت طالب أليس كذلك؟
- نعم.

ونقر بإبهامه على النعل، ثم طالعني بعينين صافيتين، باسطاً كفه الصغيرة تجاهي، وأحسست بخيط رفيع من الأسى في حنجرتي، وتنازعني شعوران حادان: هل أعطيه أجرته فحسب؟ أم أزيد عليها؟ كنت حينما أعطى أجري حسب استحقاقي أحس شرف عملي، ولكنني حين كنت أوهب هبة ما كنت أقبلها وشعور بالإهانة يتراكم فوق سعادتي في أنني كسبت أكثر...

لقد طواني المنعطف مبتعداً عن نظراته وهي تلسع ظهري ذلك أنني أعطيته استحقاقه فحسب... وحينما نظرت خلفي كان قد صرف نظره عني وتابع تحديقته إلى أرض الشارع راغباً في اصطياذ حذاء آخر..

ولكن صلتي «بحميد» لم تنته بانتهاء هذا المنظر.. فبعد أقل من شهر واحد عيّنت مدرساً في مدارس اللاجئين، وحين دخلت إلى الصف لأول مرة شاهدته جالساً في المقعد الأول.. كان شعره الأسود الخشن أقصر من ذي قبل، وكان قميصه المهترئ مجرد محاولة

فاشلة لستر عريه.. وكانت عيونه ما زالت تلتمع ببريق رغبة يائسة..
لقد سرنى أنه لم يعرفني، ورغم أنه من الطبيعي أن ينسى
ماسح الأحذية زبائنه العابرين فقد كنت أخشى من كل قلبي أن
يتذكرني، ولو فعل لكان وجودي في الصف حرجاً لا مهرب منه..
وطوال درسي الأول كنت أحاول عبثاً أن أنتزع بصري عن وجهه
المكتسي بتحفز مشوب بقلق صغير.. لقد كان الصف كله مزيجاً
من عدد كبير من أشباه حميد، صغار ينتظرون بفارغ الصبر صوت
الجرس الأخير كي يشدوا أنفسهم إلى أزقة مترامية في مجاهل
دمشق الكبيرة يصارعون الغروب من أجل أن يكسبوا العشاء.. كانوا
ينتظرون الجرس بتوق جائع كي يتوزعوا تحت السماء الرمادية
الباردة، كل منهم يمارس طريقته الخاصة في الحياة... وكانوا
يعودون، إذ يهبط الليل إلى خيامهم أو إلى بيوت الطين حيث
تتكسد العائلة صامتة طوال الليل إلا من أصوات السعال المخنوقة..
كنت أحس بأنني أدرس أطفالاً أكبر من أعمارهم.. أكبر بكثير، كل
واحد منهم كان شرراً انبعث من احتكاكه القاسي بالحياة القاسية..
وكانت عيونهم جميعهم تنوس في الصف كنوافذ صغيرة لعوالم
مجهولة، ملونة بألوان قاتمة، وكانت شفاههم الرقيقة تنطبق بإحكام
كأنها ترفض أن تنفرج خوف أن تنطلق شتائم لا حصر لها دون أن

يستطيعوا ردها.. كان الصف إذن عالماً صغيراً.. عالماً من بؤس
مكوم ولكنه بؤس بطل.. وكنت أحس بينهم بشيء من الغربة..
وأورثني هذا الإحساس رغبة جامحة في أن أحاول الوصول إلى قلوبهم
قدر استطاعتي..

كان حميد طفلاً متوسط الذكاء، ولكنه لم يكن يدرس بالمرة..
وكنت أحاول باستمرار أن أدفعه ليدرس، ولكن هذا الدفع لم يكن
يجدي..

- حميد، لا تقل لي إنك تفتح كتاباً في بيتك... إنك لا تدرس
على الإطلاق..

- نعم يا أستاذ.

- لماذا لا تدرس؟

- لأنني أشتغل..

- تشتغل حتى متى؟

وتطل العيون الواسعة الحزينة فيما تأخذ الأصابع الصغيرة
تدور باضطراب طاغية متسخة.. ثم يهمس صوت بائس:

- حتى منتصف الليل.. أستاذ.. إن الخارجيين من دور السينما
يشترون كعكي دائماً إذا انتظرتهم..
- كعك؟ أنت تبيع كعكاً؟

ويرد صوته بخجل هامس:

- نعم يا أستاذ.. كعك..

- لقد كنت أظن.. لا اذهب إلى مكانك.. اذهب!

وطوال تلك الليلة، كنت أنتصور المسكين يدور حافياً في شوارع دمشق النظيفة ينتظر خروج رواد السينما.. كنا في تشرين، وكانت السماء تمطر في تلك الليلة.. وتصورته واقفاً في زاوية ما راعشاً كريشة في زوبعة.. ضاماً كتفيه قدر جهده إلى بعضهما، داساً كفيه في مزق ثوبه محدقاً إلى صحن الكعك أمامه.. منتظراً شخصاً ما يخرج من القاعة جائعاً كي يشتري كعكة.. شخصين.. ثلاثة.. ويتسع فمه بابتسامة يائسة، ويحدق إلى ميازيب تشرين من جديد.

وفي اليوم التالي.. شاهدته في الصف، كان النعاس يأكل عيونه، وكانت رأسه تنحدر على حين فجأة إلى صدره، ثم ينهضها بعجز.

- أتريد أن تنام يا حميد؟

- كلا، يا أستاذ..

- إذا أردت أن تنام فلسوف آخذك إلى غرفة المدرسين..

- كلا يا أستاذ..

ولكنه كان يبدو منهكاً بصورة حادة، وهكذا، اقتدته إلى غرفة المدرسين، كانت غرفة عارية إلا من صورة رسمها مدرس الرسم

الفاشل ببقايا ألوان الطلبة، وكانت المقاعد الثقيلة منثورة تحت الجدران الرطبة وحول مائدة صغيرة تكدست عليها أكوام الدفاتر والكتب، لقد وقف حميد في باب الغرفة، مستشعراً كما يبدو إحساساً غريباً، كان قلقاً بعض الشيء، وكانت طاقيته تدور بين أصابعه الصغيرة، وعيونه تتناوب التحديق إلي، وإلى الغرفة..

- نم على أي مقعد، سوف نضع حطباً في المدفأة.

تحرك بطيئاً إلى المقعد القريب، وجلس فوقه نصف جلسة، فيما التمتعت عيناه بسعادة الدفء.

- هل بعت كثيراً من الكعك ليلة أمس؟

- ليس كثيراً..

كان في صوته رنة أسي عميق، وكان وجهه يرتجف:

- لماذا؟

- نمت، نمت أثناء انتظاري انتهاء الفيلم، وحينما صحت كان

كل شيء قد انتهى.

- نم الآن، سوف أعود إلى الصف.

ولكنني لم أعرف كيف أتممت درسي، كنت أحس بقلق غريب،

وكنت أخشى أن أنفجر بالبكاء أمام الطلبة.

وفي الفرصة كان حميد يغط في نوم عميق، وكان أنفه الصغير

ما زال مزرقاً من فعل البرد إلا أن الدم كان قد بدأ يرد إلى وجنتيه. لم يسأل أحد من الأساتذة أي سؤال، إذ إن حوادث كثيرة من هذا الطراز كانت تحدث كل يوم، واكتفى الجميع برشف الشاي صامتين. وطوال الأيام التالية كنت أبحث عن طريقة أدخل فيها إلى حياة حميد دون أن يمسه فضولي، وكانت هذه العملية صعبة للغاية، إذ إن كل طالب في مدرسة النازحين كان يصر على الاحتفاظ بمأساته الخاصة، وضمها بعنف في صدره.. كأنما كان هنالك شبه اتفاق مشترك على أن هذا واجب وضروري..

إن الأشياء الصغيرة، حينما تحدث في وقتها، يكون لها معنى أكبر منها، أقصد أن هنالك بداية صغيرة لكل حادث كبير.. ففي أحد الأيام أتى أخي الأصغر إلى المدرسة يحمل طعام الغداء لي، وحينما أعلمني خادم المدرسة بذلك، أرسلت حميداً إليه كي يأخذ منه أوعية الأكل. وعندما عاد حميد أحسست بأنه قد أهين بكيفية أو بأخرى، ولذلك طلبت منه أن يراجعني في غرفة المدرسين، أثناء فرصة الغداء. دخل حميد غرفة المدرسين قلقاً كالعادة، كنت وحيداً، ورغم ذلك فإن قلقه لم يبارحه، كانت أصابعه تدور طاقيته باضطراب، وكانت عيونه تلتمع كعادتها..

- حميد، هل أعجبك أخي؟

- إنه يشبه أخي..

لم أكن أتصور أن الموضوع سوف يطرق بهذه السرعة.. ولذلك
فلقد سألت متعجباً:

- أخوك؟ إنني أعرف أن لك أختين فحسب..

- نعم. ولكن أخي مات..

- مات؟..

أحسست باضطراب أنا الآخر، فهذا الصغير يضم صدره الضامر
على أسرار كبيرة..

- كان أصغر منك..ها؟

- كلا.. أكبر مني..

- كيف مات؟

ولكن حميد لم يجب، وشاهدته يغالب دمعاً غلبه في نهاية
الأمر، وامتلاً وجهه الصغير بدمع غزير أخذ يمسحه خجلاً بعض
الشيء...

- حسناً..لا تتكلم..أتعرف إن أخي أنا الآخر مات؟

- صحيح؟

- نعم.. لقد دهسته سيارة كبيرة..

كنت أكذب.. ولكنني رغبت في أن أشارك أحزان الصغير بكيفية

ما.. وشعرت بأن كذبتني قد أخذت طريقها السوي إلى رأسه إذ
التمعت عيناه بأسى مفاجئ ومضى يحكي ببطاء:

- أخي لم تدهسه سيارة... لقد كان يعمل خادماً في الطابق
الرابع.. وكان سعيداً..

كان حميد يستعين بذراعيه كي يوضح كلامه وكانت دموعه
تنساب دون أن يشعر..

- لقد أطل في قفص المصعد فقطع المصعد رأسه وهو يهبط..
- مات؟

كان السؤال سخيلاً، ورغم ذلك فلقد أحسست بضرورته من
أجل أن أهدهد فشعريرة مفاجئة تكلمت في جسدي.. وهز حميد
رأسه ثم سال فجأة:

- هل قطعت السيارة رأس أخيك؟

- أخي؟ آه.. نعم.. نعم لقد قطعت رأسه..

- هل حزنْتَ عليه كثيراً؟

- نعم..

- هل تبكي عندما تتذكره؟

- ليس كثيراً...

- قل لي يا أستاذ.. هل لك أب؟

- طبعاً، أعني نعم، لماذا؟

خطا نحوي وسأل بلهفة راعشة:

- هل هو بخير؟

- نعم.. لماذا؟..

تكهفت عيناه بأسى فاجع وشعرت بأن للمأساة ذيولا تعصر رثيته.. ولكنني كنت على يقين بأن حميداً سوف لن يجيب على أي سؤال... لقد انطبقت شفتاه بإحكام مصر.. ويمم عينيه شطر الحائط العاري... كان بنطاله قصيراً ممزوقاً وكان قميصه الأزرق متسخاً مهترئاً.. وحين شاهدني أطلعه باستغراب لملم نفسه واحمر وجهه قليلاً وازدادت سرعة الطاقة الصوفية الدوارة بين أصابعه.

لقد بدأت مشكلة حميد تدخل شيئاً فشيئاً فيما بعد، إلى حياتي. كنت لا أستطيع على الإطلاق أن أكون عابراً في حياته، متفرجاً إلى مأساته، ومن بين عشرات المآسي التي حفل بها صفي لم تجذبني إلا عيون حميد البائسة اليائسة.. صرت أفكر فيه على الدوام. وكثيراً ما كنت أقرر أن أبدأ بنفسي، خارج المدرسة، بحثاً متصلاً حول حياة حميد.. بل لقد فكرت يوماً في أن أبحث عن طريقة تجعل أمر مساعدته مالياً شيئاً طبيعياً لا يحمل رائحة الإهانة.. ولكن كل شيء كان يدور مجهداً حوالياً، وكان ينتهي إلى الفشل أمام العيون التي

تحتوي، إلى جنب الأسى، شيئاً كثيراً من الكبرياء والتعالي..

إلا إن علاقتي بقضية حميد أخذت تخفت شيئاً فشيئاً بعد سلسلة من الأحداث الصغيرة جعلتني أحمل نقمة غريبة على هذا المخلوق الصغير، المعقد، المكوم فوق أسرار، لا تنتهي إلا لتبدأ، ولا تبدأ إلا لتستمر.. فلقد حدث ذات يوم أن شكا إلي حميد أستاذاً زميلاً أهانه إهانة بالغة. ولقد قال حميد، يومها، وهو يحدق إلي مكشراً بعض الشيء:

- إنني يتيم... وإلا لكنت استدعيت أبي..

- ها.. أبوك ميت؟..

قال بخجل وهو يطأطن رأسه:

- نعم..

- لماذا لم تقل لي ذلك من قبل؟

لم يُجب حميد على سؤالي واكتفى بأن واصل هز رأسه،

وصمت:

- أنت الذي تصرف على عائلتك إذن؟

- نعم.. أنا الذي أصرف.. إن أمي تكسب قليلاً من تنظيف

مخازن وكالة الغوث.. ولكنني أنا أكسب أكثر..

وصمت حميد قليلاً ثم اندفع قائلاً وهو يبسط كفيه الصغيرتين

مستعيناً بحركتهما:

- إنني أشتري كل ثلاث كعكات بعشرة قروش.. وأبيع الكعكة الواحدة بخمسة قروش..

- أما زلت تنام وأنت تنتظر خروج رواد السينما؟..

- كلا.. لقد نعددت السهر..

هل من الضروري أن يعترف المدرس، بين الفينة والأخرى، بأنه يلجأ إلى الغش كي يعين طالباً مسكيناً على النجاح؟ لقد كنت أنا أفعل ذلك.. كانت علامات حميد جيدة على الدوام رغم أنه كان متوسط المستوى، ولكنني لم أشعر قط بعدالة علاماتي بقدر ما كنت أشعر هذه العدالة حينما كنت أسجل علامات حميد.. ولكن القضية لا تتحرج هنا على الإطلاق، لقد بدأت تتحرج فقط حينما أخذتُ أشك في سلوك هذا «الحميد» وفي كلامه لي، بل وفي دمه أيضاً..

ففي عصر يوم قائظ من أيام نهاية العام نقل إلي تلاميذ الصف أن خادماً المدرسة ضرب حميداً ضرباً قاسياً حينما كان يحاول عبور حاجز المدرسة هارباً، وحينما استدعيت الخادم إلى غرفة المدرسين كي أعاقبه وجددتني أواجه رجلاً يتمتع بقناعة غريبة بأنه إنما فعل عين الصواب، ضارباً عرض الحائط بكل مفاهيم التربية النموذجية

التي حاولت أن أوضحها له.. حينذاك لم أجد بداً من أن أواجهه
بمنطقه الخاص:

- أليس حراماً يا أبا سليم أن تضرب يتيماً؟

جار أبو سليم ماداً رأسه تجاهي وقد عقد ذراعيه على صدره:

- يتيم؟ إن أباه لوح، أكتافه تملأ الدنيا..

- حميد له أب؟

- سألت متعجباً.. فيما أتاني نفس الجواب مكرراً بصلف:

- إن أباه لوح.. تملأ أكتافه الدنيا..

أحسست بإهانة تصفع صدري.. وساءني أن يكون الصغير قد

بنى عظمي عليه فوق أكاذيب منحلة.. شعرت بأنني لم أكن سوى

مغفل طيب القلب وأن كل العلامات التي جعلتها تخطو من فوق

ضميري بارتياح تضحك في وجهي الآن بشراسة..

وطوال الطريق إلى بيتي كانت كلمات أبي سليم تعرك رأسي

ويدوي صداها في حنجرتي.. وكنت أحدث نفسي زاعماً لها أن

أولئك الملاعين الصغار هم في الحقيقة أكبر بكثير من أعمارهم،

وأن الخطأ كان في أنني عاملتهم على أنهم أطفال فحسب، لقد

تغاضيت عن كونهم رجالاً صغاراً يستطيعون الوصول إلى ما يريدون

بأية طريقة تخطر على بالهم.. وأن لعبة حميد على أستاذه ليست

في نظره سوى لعبة بائع كعك على زبون نصف سكران تنتهي بشراء
كعكتين، أو كعكة بسعر كعكتين..

ورغم هذا الكلام، فإنني لم أستطع أن أتخلص من شعوري
الحاد بأنني أهنت على يد حميد إهانة بالغة، وأخذ تفكيري يسير
في الطريق الذي يؤدي إلى إيجاد انتقام ما.. إنني أعتقد الآن بأن
القضية نافهة، وأن تفكيري كان أطفه، ولكنني لم أكن أرضى لحظتذاك
بأن أتنازل قيد أنملة واحدة عن حقي في أن أمسح بالإهانة..

ولكن الذي حدث فيما بعد لم يستطع أن يهدد غضبي، بل
على العكس، لقد زاده أواراً على أوار.. واستشعرت بعدها ألماً ممضاً
يعتصر صدري بلا هوادة.. فلقد قصّ علي طالب ثرثار كيف ماتت
أم حميد قبل شهور طويلة بعد أن وضعت طفلة ميتة.. ووجدتني
أغوص في دوامة من الأكاذيب كوّمها حولي هذا الحميد الصغير
ببراعة لا تكاد تصدق...

أنت نهاية احتمالي في غداة يوم قاتظ، كنت عائداً فيه من
المدرسة فرأيت فجأة بعد غياب طويل..

أتكون محض مصادفة غريبة أنني التقيت به في نفس المكان
الذي شاهدته فيه لأول مرة؟ كان مقرفصاً هناك خلف صندوقه
الخشبي الملوّث بالدهان، يحدق إلى الشارع راغباً في اصطلياد حذاء

ما... فيما وقفت أنا نصف مصعوق أكاد لا أصدق أنني أرى بائع
الكعك المزعوم، وأحسست بالإهانة تجترح حلقي، وحينما استطعت
أن أميز ماذا كنت أفعل وجدتني ممسكا بياقة الصغير أهزه بلا
هوادة.. وأفح باتصال:
- أيها الكذاب..

رفع الصغير عيونه أمامي مفتوحة حتى أقصاها، ممزوجاً
لمعانها بمعنى من معاني الخوف المفاجئ، ورأيت شفثيه تتحركان
دون أن تستطيعا النطق بينما فشلت محاولته الصغيرة للخلاص من
بين قبضتي..

وعدت أكرر وقد أحسست بشيء يهوي في صدري أمام
الصمت اليائس:

- أيها الكذاب...

- أستاذ..

قالها باسترخاء رافعاً أصبعه بصورة آلية ونظر حواليه باضطراب
ثم اعترف راجفاً:

- نعم يا أستاذ أنا كذاب، ولكن اسمع..

- لا أريد أن أسمع شيئاً..

ضاقت عيونه وخيل إلي أن دمعة توشك أن تسقط وعاد صوته

يرجف من جديد:

- اسمع يا أستاذ..

- أيها الكذاب... أنت تعيش مع أمك... أليس كذلك أيها

الكذاب؟

- كلا يا أستاذ.. كلا.. إن أمي ميتة ولكنني لا أستطيع أن أقول..

فحينما ماتت أمي طلب والدي منا أن لا نقول شيئاً عن موتها.. أن

نصمت..

تراخت قبضتي وسألت بضعة:

- لماذا ؟

- لم يكن يملك أجره الدفن... وكان خائفاً من الحكومة..

أسدلت ذراعي إلى جنبي، واستطعت أن التقط خوف الصغير

الساذج الذي استمر حتى هذا اليوم دون مبرر ولكنني خفت أن

أكون مخدوعاً فعدت أصيح، ولكن بليونة أكثر...

- وأبوك؟ قلت لي إنه مات... أليس كذلك ؟

- لم يستطع حميد أن يتماسك أكثر فأدار وجهه إلى الحائط

وأخذ يبكي فيما سمعت خلال نشيجه صوته الضعيف:

- إنه لم يمت... إنه مجنون يدور في الشارع نصف عار.. لقد

جن بعد أن شاهد رأس أخي يقطعه المصعد...

- جن؟

- نعم... لقد أطل أخي داخل قفص المصعد من أجل أن يستقبل أباه.. وشاهد أبي المنظر بأم عينيه، فأخذ يعدو في الشارع.. قلت، مستشعراً الدوار يتكلم في صدغي:

- لماذا قلت لي إنك تبيع الكعك؟ هل تستحي من صنعتك؟
لانت نظرات حميد، وحقق إلي بعيون شفافة قائلاً بخجل:
- لا.. لقد كنت أبيع كعكاً، وأول أمس عدت إلى هذه الصنعة..
- ولكنك كنت تكسب كثيراً؟
- نعم، ولكن..

وعاد الرأس الصغير ينوس كعاداته كلما تعرض لخجل أكبر منه،
ودق بالفرشاة على سطح الصندوق دقات منتظمة هامساً دون أن يرفع بصره..

- كنت أجوع آخر الليل.. وكنت أكل كعكتين أو ثلاثاً.
لم أدر كيف أتصرف، هممت أن أطلق ساقي للريح، ولكنني وجدتني أضعف من أن أفعل.. وبقي الرأس الصغير بشعره الأسود الخشن منحنيًا، ودون أن أحس رفعت قدمي وأركزتها على حدة الصندوق..

بدأت الكفان الصغيرتان تعملان بحذق فيما أخذ الرأس الخشن

يهتز فوق الحذاء، ثم وصلني الصوت إياه قائلاً ببساطة:
- أستاذ... أنت لم تغير حذاءك منذ عام... هذا حذاء رخيص.

الكويت - ١٩٥٩

في جنازتي

أيتها الغالية...

لو أردت الحقيقة فأنا لا أعرف ماذا يتعين علي أن أكتب لك.. كل الكلمات التي يمكن أن يخفقها قلم مشتاق كتبها لك عندما كنت هناك. أما الآن.. فلا شيء أستطيع أن لا أكرره على مسمعك.. ماذا أقول لك؟ أقول كما يقول أي إنسان سوي بأن حبك يجري هادراً في دمي كطوفان لا يلجم؟ كنت أستطيع أن أقول لك ذلك لو كان هذا الذي يجري في سراييني شيئاً ذا قيمة.. ولكنني في الحقيقة إنسان مريض.. فالدم الذي يحترق في لا قيمة له على الإطلاق: فهو دم يليق بإنسان عجوز، نصف ميت، نصف ساكن، ليس في صدره سوى صناديق الماضي المقفلة، أما مستقبله فمجرد شمعة تضيء آخر لهبها كي تنطفئ، ثم ينتهي كل شيء..

كنت أعتقد، أيتها الغالية، أن الأيام حين تمر سوف تبلم قليلاً من الجرح.. ولكن يبدو لي الآن أنني اشتد تهاوياً كشيء أفرغ من

تماسكه على حين فجأة فهو لا يعرف ماذا يقيمه. إن كل يوم يحفر في صمودي صدعاً لا يعوض. وكل لحظة تصفع وجهي بحقيقة أمر من حقيقة.. اليوم صباحاً سعدت الدرج راكضاً وحين شارفت نهايته أحسست بقلبي ينشد على ضلوعي ويتوتر حتى ليكاد ينقطع.. أي شباب هذا؟ أي قيمة تبقى يا عزيزة؟ أية قيمة؟ لماذا أسير أكثر إلى الأمام؟ أي شيء يلوح كالشبح في ظلمة سوادها أقتم من ضمير طاغية؟ أي شيء أفدته من حياتي كلها.. نعم أي شيء؟

ولكنني كنت أعيش من أجل غد لا خوف فيه.. وكنت أجوع من أجل أن أشبع في ذات يوم.. وكنت أريد أن أصل إلى هذا الغد.. لم يكن لحياتي يومذاك أية قيمة سوى ما يعطيها الأمل العميق الأخضر بأن السماء لا يمكن أن تكون قاسية إلى لا حدود.. وبأن هذا الطفل، الذي تكسرت على شفتيه ابتسامة الطمأنينة، سوف يمضي حياته هكذا، ممزقاً كغيوم تشرين، رمادياً كأودية مترعة بالضباب، ضائعاً كشمس جاءت تشرق فلم تجد أفقها..

ولكن السماء، والأرض، وكل شيء، كانت على شكل مغاير لآمال الصغير... لقد مضت الشهور قاسية بطيئة.. وحين كبر تسلمته عائلته كي يعطيها اللقمة التي أعطته يوم لم يكن يستطيع أن ينتزعها بنفسه.. المسؤولية شيء جميل... ولكن الرجل الذي يواجه

مسؤولية لا يقدر على احتمالها تسلب رجولته شيئاً فشيئاً تحت ضغط الطلب... كل شيء في العالم كان يقف في وجهه... كل إنسان كان يصفعه، وكل يوم يمر كان يبصق في وجهه شعوراً مرّاً حاد المرارة بالتقصير.

ورغم ذلك... كنت أقول لذات نفسي «اصبر، يا ولد، إنك ما زلت على أعتاب عمرك، وغداً، وبعد غد، سوف تشرق شمس جديدة، ألسنت تناضل الآن من أجل ذلك المستقبل؟ سوف تفخر بأنك أنت الذي صنعتَه بأظافرك، منذ أسه الأول... إلى الآخر» وكان هذا الأمل يبرر لي ألم يومي، وكنت أحرق إلى الأمام وأدوس على أشواك درب جاف كأنه طريق ضيق في مقبرة...

ثم حدث شيء جميل، لقد انشقت الغيوم المتكومة عن ضوء بعيد، تحررت قليلاً من ضغط الحاجة.. ثم.. ثم تعرفت إليك.. أتذكرين؟ لقد جمعتنا حفلة صغيرة، وحين التقت عيوني بعيونك أحسست بمعول ينقض في صدري فيهدم كل المرارة التي اجترعتها طوال طفولتي... كان شعرك في أروع فوضى، وكانت عيونك مؤطرة بسواد أسر... لقد وجدت نفسي أحرق إليك دون وعي وكتبت أنت عن هذه اللحظة في مذكراتك - التي قرأتها فيما بعد - أنك استلطفت هذا البحار الذي يحرق كأنما يوشك أن يلقي مرساته في ميناء...

ومرة بعد مرة كنت أراك فأرى نفسي أشد التصاقاً بنفسي...
كنت أقف أمامك كطفل يفصله عن لعبته زجاج واجهة ملونة
فحسب.. وترتجف الكلمات الموهنة في حلقي، ثم تتساقط واحدة
تلو الأخرى إلى صدري فأسمع لها خفقاً عنيماً يهز أضلاعي... وعرفت
أكثر فأكثر... وكتبت في مذكراتك عن تلك الأيام..
«إنني أنتظر أن أعرفه أكثر فأكثر...» وكنت أنا لا أقوى، بعد،
على كتابة أي شيء عنك...

ثم... آه أيتها العزيزة، لقد أحببتك بكل القوى التي تحتويها
ضلوع إنسان يبحث عن استقرار.. بكل خفقان القلب الذي تعذب
طوال عمره... بكل صلابة الأضلاع التي جاعت، وتشردت وتألمت...
من أجل هذه اللحظة... كنت المنارة التي أشرقت على حين غرة
أمام الزورق التائه... وتشبثت بهذا الإيجاد بكل ما في زنودي من
توق إلى الطمأنينة...

وكتبت لي، يومذاك، تقولين: «لماذا أنا أشتاق إليك كل هذا
الشوق، إذا كانت 'أنا' تعيننا نحن الاثنين.. كما اتفقنا؟» وكنت أنا
أضم أملى بعنف يليق به. وكنت أريدك.. أريدك.. بكل ما في هذه
الكلمة من طلب.. وبدا لي أن الحياة قد ابتسمت أخيراً وأن القلعة
الجهمة من الألم، القلعة التي ارتفعت حجراً مرّاً فوق حجر مرّ في

وجودي.. هذه القلعة أطل من فوقها الآن على كل هذه السعادة..
وأعطاني هذا التصور رضى كاف..

وغبت عنك بعيداً حيث أقتلع لقم عيشي افتلاعاً.. وهناك، في
ذلك البلد البعيد الذي يحتوي على كل شيء وليس فيه أي شيء..
البلد الذي يعطيك كل شيء ويضن عليك بكل شيء، في ذلك البلد
البعيد الذي يتلون أفقه في كل غروب بحرمان ممض، والذي يشرق
صباحه بقلق لا يرحم.. هناك، كنت أعيش على أمل أن أستطيع، في
يوم يأتي أن أضع حداً لكل شيء.. وأن أبدأ معك من جديد منذ
البدء.. ولكن القدر كان لا يريد للشرع أن يندفع في ريح طموح،
وحينما جارت عيون الطبيب تدب إلي خبر الرعب الذي يجري في
عروقي، أحسست بالقلوع كلها تتهاوى في أعماقي، وسمعت قرقرة
التهاوي تدوي في أذني، ويدور عالمي بي حتى تغشى عيوني
بضباب ساخن.. وعيون الطبيب أمامي تكفن مستقبلي، وعروق
جبهته العريضة تقدم تفاصيل عذاب متصل ناشف.

وحين عادت بي أعصابي، سمعت كلمات جوفاء يقيؤها
الطبيب بلا أعماق، كلمات عن الأمل، عن الشجاعة، عن العلم، عن
الشباب... كلمات فقدت كل معانيها، وأصبحت حروفها مجرد ديدان
صغيرة تلتف حول نفسها بلا مبرر... ما هي الشجاعة التي يطالبني

بها الطبيب؟ أن أواجه مستقبلاً أنا أعرف أنه مشوب بالحرمان والتعاسة؟ أم أن أستسلم لهذا المستقبل بالقدرية التي تليق بعجزو باع حياته كي يشتري آخرته كتاجر بلا رأس مال؟ ما هو الأمل وأنا على يقين بأن لا شيء يلوح في الأفق... أي شباب؟ نعم أي شباب هذا الذي لم يومض قط... الذي لم يعيش قط.. أي شباب؟ كم أصبح تافهة قيمة الكلمات التي يرددها الطبيب لمجرد أن كُتب الطب قالت ذلك.

ولكن الصفحة الأقوى أنت حينما هبطت الدرج عائداً من عيادة الطبيب، لقد تذكرتك... وفي اللحظة التي ومض فيها وجهك الحي في عيني، ومضت في صدري صاعقة يأس سوداء... هل تقبل هذه الإنسانية رجلاً مريضاً؟ كي تنجب منه أبناء مرضى؟ هل تقبل أن تكون ممرضة؟ أن تعيش مع شاب نصف ميت؟

وكانت الأيام التي أنت ذات قساوة أعمق.. لقد فشلت في أن أكون بطلاً، أو شجاعاً، كما أرادني الطبيب، وأحسست بأن الأشياء الصغيرة التي كانت تملأ حياتي بالتفاصيل قد فقدت أهميتها بالنسبة لي، وأن الأيام التي سوف تأتي لا تحمل في جوانحها أي خفقة جديدة لهذا القلب المسكين... لقد فشلتُ في أن أمثل دور البطل... وكان كل شيء في الحياة يتحداني ويمتص صمودي

ويشمخ أمام ضعفي كسد هائل من اليأس...

إنني أمشي في جنازتي رغم أنفي... كل العظات الجوفاء التي علّمتها في السنوات الماضية تبدو لي الآن فقاعات صابون سخيفة شديدة السخافة، إن المرء يكون شجاعاً طالما هو ليس في حاجة للشجاعة... ولكنه يتهاوى حينما تصبح القضية قضية حقيقية... حينما يصبح عليه أن يفهم الشجاعة بمعنى الاستسلام.. بمعنى أن يلقي جانباً كل ما هو إنساني ويكتفي بالتفرج، لا بالممارسة...

وكنّت أنت، في كل طريقي إلى غرفتي، عذابي ودواري... وكنّت أحس بك تتسربين من بين ضلوعي، من بين أصابعي، وأنني أعض عبثاً على أمل لا يريد أن يبقى معي... وكنّت جملتك تدوي في رأسي، جملتك التي كتبتها لي ذات يوم: «لو تبدلت أفكارك سأتركك... المهم سوف يكون فراق... أتفهم أنت معنى هذا الرعب؟» لم يتبدل رأسي، أيتها العزيزة، لقد تبدل دمي، تبدل كل شيء... وأخاف أن أقف أمام عيونك، أستجدي حبك استجداء إنسان فقدَ أشياءه العزيزة.. أخاف - بكل ما في هذه الكلمة من جبن - أن أتطلع إلى عيونك فأرى معنى من معاني الرفض مغلفاً بالشفقة.. سوف أحس بأن قدمي انزلقتا فوق الصخر الذي أمضيت عمري أتسلقه بكل قواي.. وسوف لن يقدر الوادي، قط، أن يعيد لي ولو شيئاً من الرغبة

في الاستمرار. أتعرفين معنى أن يفقد الإنسان كل شيء في مدى لحظات عودته إلى داره؟ أتعرفين معنى أن يكتشف شاب بأن حياته القاسية الجافة لم تكن إلا عبثاً محضاً في لحظات قصار؟ ثم، أتفهمين معنى أن يقوم حب ما على أعمدة من الشفقة فحسب؟ ونمت تلك الليلة في زورق جموح يناضل دوامة بلا قرار.. وكان رأسي مسرحاً لهزليات كثيرة تتعاقب دون رباط.. آرائتي التي كونتها أصبحت في حاجة لتنظيف.. القيم التي عبدتها يجب أن تحطم.. الأحلام التي كومتها في صدري لم يعد لي حق امتلاكها، وكل شيء في ماضي وحاضري ومستقبلي تغلف بميوعة ذات رائحة عفنة.. وبدت لي كل القيم التي وضعها الإنسان المغرور لحياته ليست سوى هذيان سكران يريد أن ينسى..

وأفكار المريض، حينما تجمع به تصوراته، أفكار مضحكة مبكية.. لقد حسبت لمدى لحظات أن اختياري من بين آلاف الآلاف من البشر لأكون مريضاً بهذا الداء الملعون المزمّن عملية تقويم فذة، وأن هذا المرض وسام من طراز نادر يزين صدري من الداخل، وأنني أكاد أسمع رنينه مع خفقان قلبي.. ولكن الحقيقة كانت شيئاً آخر.. وحينما صحت كانت المأساة تمتد أمام بصري جهمة، حادة، سوداء، ممتدة في مستقبلي إلى ما لا نهاية، تعبق

بالعجز والحرمان...

لماذا كنت أفكر فيك أنت بالذات أكثر من أي شيء آخر؟ لقد بدا لي كل شيء ممكن الاحتمال، ولكنك أنت كنت عذابي الخاص الملح.. وكنت أريد، بكل قواي، أن أحل هذا الإلحاح بصورة من الصور، أن أتركك وأهرب... أو أن ألصق بك أكثر فأكثر.. ولكن الموقف الخائف، الموقف المتردد كان يقض رأسي بلا رحمة..

وبعد يوم آخر، وصلت إلى قرار.. إنني، الآن، لا أعرف ما الذي دفعني إلى ذلك القرار، لقد نسيت، أو فلنقل إن الأحداث التي جرت فيما بعد جعلتني أنسى.. ولكن الشيء الذي أذكر أنه كان في رأسي حينما قررت قراري هو أنني يجب أن أكون بطلاً ولو مرة واحدة حقيقية.. أن أكون واحداً من أولئك الذين ترد أسماؤهم في القصص بصفتهم واجهوا مواقفهم الحادة بشجاعة فائقة، وصفعوا أقدارهم الخاصة بكل ما في وسعهم من قسوة.. وقلت لنفسي، فيما أنا سعيد بعض الشيء بأنني توصلت إلى قرار: «سوف أسكب لها الحقيقة، كل الحقيقة.. ولنسوف تعرف هي أي عذاب حملته لنفسي حينما قررت أن أتركها تبحث عن طريق آخر لحياة سعيدة، هي تعرف كم أحبها.. ولو لم تستطع أن تفهم عظم تضحيتي الآن.. فلنسوف تعرفها في المستقبل.. على أي حال.. أنا لا يهمني أن تعرف أو أن لا تعرف..

كل ما هنالك أن ضميري سوف يرتاح بعض الشيء، وأن حياتي سوف تكتسب شيئاً من الطمأنينة، والقناعة..»

أنت لا تعرفين، يا عزيزتي، كم كلفني هذا القرار.. فلنقل إنني كنت مريضاً منهاراً فلم أستطع أن أفهم أي عمل أنا مقدم عليه.. فلنقل إنني أردت أن أغوص حتى عنقي في أوحال التحدي المغرور، وإنني أردت لنفسي أن تفقد كل شيء على الإطلاق طالما هي فقدت أهم الأشياء.. فلنقل إنني أردت أن أمزق كل ما في صدري من بقايا الآمال المحتضرة وأن هذا التحدي السخيف كان الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أبرهن فيها لنفسي - ولو لأقصر مدى ممكن - أنه ما زال في توقي أن أتصرف كإنسان.. كأني إنسان.. فلنقل أيما شيء، ولكن الشيء المائل بإصرار هو أن قراري كان نهائياً.. وأني، طوال الطريق إليك، كنت قابضاً عليه في صدري بكل ما في قدرتي.. وأن ضلوعي كانت تنبض بقسوة، ولكن بلا جدوى.. ما جرى، بعدُ، أنت تعرفينه جيداً كما يعرف إنسان ما وجه عمله ما.. ولكنه لا يعرف وجهها الآخر على الإطلاق.. وكنت أنا ذلك الوجه الآخر، لقد صارعت في داخلي بكل قواي كي أستطيع أن أقول لك، أو ألهث أمامك، قراري.. ولكن كل شيء كان يرفض أن يصل إلى حلقي.. كنت لا أقدر أن أقف كما يقف أي بطل شكسبييري

ليزف مأساته بجرأة القرون الماضية.. وكنت أبحث جاهداً عن نافذة
أدخل منها.. عن كلمة أتعلق بها.. عن أي شيء أتكى عليه.. ولكنني
أعطيتك في ترديدي فرصة نادرة لتهدمي كل شيء..

لقد كنت أجراً مني في أن تعترفي بأن هنالك رجلاً آخر.. وبأنك
مضطرة لأن ترضخي للفرص التي منحها لك.. والتي لم أمنحها أنا..
ولكن هل قلت لي أنت بأن هنالك رجلاً آخر حقيقة؟ كلا.. إنك لم
تلفظي الكلمات.. ولكنك قلتها بعيونك، وحركاتك، وخلف حروفك
الدوارة.. قلتها بصراحة أقسى من أي كلمة واضحة.. وصفعتني بها
قبل أن أجد الكلمة التي أحملها مأساتي، وأشحنها بنبأ مرضي
الحزين.. لقد قلت كل شيء بجرأة تليق بامرأة تريد أن تستقر..
وحينما غيبك الباب، غيبتك الأيام. وذهبت إلى حيث لا أدري،
ولكنني أحس.. ولقد عذبتك اللحظة، هذا شيء واضح ولكنك تركت
كل شيء معي، بين الجدران العارية، وذهبت.. بدأت.. نسيت.. ولم
تسمعي مني أبداً الكلمات التي زرعتها بكل ما تبقى من كرامتي.
الكلمات التي جمعتها ليلة بعد ليلة من لهائي.. وشجاعتي..
وخوفي.. والتي لم يتيسر لي أن أقولها لك..

وكنت أصدق إلى الباب العتيق بعدما أغلقته.. كان يخيل إلي
أنني ما زلت أراك تدفين أرصفة دمشق، وكنت أسمع خفقات

خطواتك بكل وضوح، ولكنني كنت في القاع.. في آخر الدوامة.. لقد شعرت فوراً أي شيء فقدت.. وفقدته رغم أنفي.. أنت لا تعرفين أنك أضعت علي فرصتي الأخيرة في أن أستعيد إنسانيتي التي امتصها المرض حتى آخرها.. أنت لا تعرفين كم حرمتني من وسيلتي الوحيدة التي كنت أريد أن أقنع نفسي بأنني ما زلت أستطيع أن أكون شجاعاً.. وبدأت لي كل حياتي صدفة فارغة لم يكن لها أي معنى.. وأن أخطاء العالم كلها تلتقي عندي..

لماذا تسرعت في الاعتراف؟ لماذا؟ لماذا لم تتركي لي فرصتي الخاصة في أن أمثل آخر أدواري؟ .. ولكنك لا تعرفين.. لقد حدث كل شيء بسرعة، وأنت الآن هناك، في حديقة ما، تضحكين معه، وتتحدثان عن الصغار الذين سيزينون مستقبلكما.. إن لك كل الحق في أن تفعلي، وفي أن يفعل، ولكن من يستطيع أن يمنعني، أنا الآخر، من أن أحقد عليكما.. على الجميع.. وعلى نفسي؟ من يستطيع أن يحرمني من أن أكرهكم جميعاً.. وأتمنى الموت لكم.. ولي.. ولكل شيء؟ القيم والمثل؟ كلا، إنها قيمكم ومثلكم أنتم.. الناس الأصحاء السعداء.. أما قيمي ومثلي فهي شيء آخر.. شيء خاص مختلف يتناسب وأكوام المرارة التي أعيش فوقها.

أرايت؟ لقد كان الفرق لحظة واحدة فحسب.. لو تأخرت في

اعترافك، لكان تغير كل شيء. ولكن الفرصة ضاعت الآن.. وابتدأت
أنت تماماً من حيث انتهيت أنا..

دمشق - ١٩٥٩

الأرجوحة

قررت أن أصارحها، مهما كلفني الأمر من ذلة.. وكنت قد وصلت إلى قرار صغير: إذا كنت أنوي الزواج منها، فلماذا لا أحكي لها قصتي مع ندى؟ صحيح أن علاقتي مع ندى لم تنته تماماً، لكن علينا أصبح يعرف أنها انتهت، ولم يبق من تلك القصة سوى أن تنتقل إلى القبر، بكلمة حازمة أقولها أو تقولها.. وهذا كله ليس غباء، ليس جراً لمشكلة أنا في غنى عنها، كما قال صديق حكيم.. إذ إنه من المستحيل أن يتصور أحد ماذا عساه يحدث لو وصلت قصتي مع ندى إلى أذني غيداء عن طريق لسان غير لساني.. «سوف تجعل النملة فيلاً.. أنا أعرفها» هكذا قلت للصديق، «أنت لا تعرف كيف ينقل الناس القصص.. ولا تعرف كيف تفهم غيداء القصص..»

ثم، لماذا لا أصارحها؟ هل تتصور أنني أمضيت عمري، قبل أن ألقاها، ملاكاً يجر خلفه رداء فضيلة أبيض؟ لكل منا تجربته في

الحياة.. فلماذا لا أصرحها؟ لماذا لا أقول لها أنني كنت أحبها، ثم انتهى الأمر ووجد كل منا مصيره الخاص العميق؟ على العكس أيضاً، أنا أرى أنها سوف تكتشف مزيداً من البراهين على حبي لها حينما تعلم أن اختياري لم يكن فرصة صدف وجودها في طريقي.. وحينما تعلم، أيضاً، أنني تركت امرأة أخرى من أجلها، ثم اعترفت لها..

لا، لا بد من الصراحة.. قد لا يكون ثمة ربح منها، ولكن لا يمكن أن تكون أية خسارة أيضاً.. وفي نهاية الأمر، أليس من حقها أن تعلم كل شيء عني قبل أن تتشابك أيدينا لنمضي معاً؟

- أنت تتصرف هكذا حينما تكون على وشك القيام بعمل ما..

- كيف أتصرف؟

- تهز رأسك بعنف كأنك تنفض عنه شيئاً، أو تثبت شيئاً.. ماذا

عندك اليوم؟

هذه المخلوقة تلاحظ كل شيء.. ولذلك فهي تسهل علي قول أي شيء.. إنها تقرأ حركاتي قراءة، وهذا شيء رائع في الحقيقة، كانت على المقعد الكبير الذي ينام في ظل الصنوبرة العجوز، هنا كان أول لقاء.. وبعدها كنا نأتي إليه دائماً دون أن نجعل من ذلك موضوعاً للرومانسية..

- أنتِ على حق.. أريد أن أصرحك بأمر ما..

طوت قفازيها، كأنها على وشك أن تمضي، ثم رفعت عينيها
الواسعتين السوداوين مباشرة في عيني، وترقبت، بينما تشاغلت أنا
في مسح حافة المقعد الخلفية بأصبعي..

- أنت تعرفين، هنالك أمور يجب أن نتصارع بها..
- طبعاً..

قذفتها بإيجاز، واستمرت في الانتظار..
- قبل أن أعرفك كان لي علاقة بإنسانة اسمها ندى..
- كنت تحبها؟

- نعم.. ولكنني الآن كففت عن حبها..
عادت، ففردت قفازيها فوق حقيبة يدها السوداء، وقالت:
- كففت عن حبها؟ كيف؟ أغلقت درجها في الخزانة؟
- أية خزانة؟

- قلبك.. خيل إلي أنك تمتلك فيه مجموعة أدراس، تفتح واحداً
وتغلق آخر حسبما ترغب..

لم أكن أتوقع، في الحقيقة، أن تجري الأمور في هذا الاتجاه،
وهكذا فقد وجدتنني، فجأة، محتاراً..

- كفي عن السخرية، غيداء، أنت لا تعتقدين أنني صفحة
بيضاء أمضت عمرها تنتظر..

- طبعاً كلا، أنا أفهم أنني لا أستحق انتظارك.. لقد تكلمت عليّ بالسطر الأخير في صفحتك البيضاء.. أليس كذلك؟

كيف يمكن زحزحة الموضوع الآن عن هذه الطريق العجيبة؟

أمضيت فترة صامتاً مفكراً، ثم عدت من نقطة البدء:

- كنت أتكلم عن فتاة عرفتني، اسمها ندى..

- هل كانت جميلة؟

- كلا.. نوعاً ما.. نعم.. كانت جميلة..

- ولماذا لم تتذكرها إلا الآن؟

- قلت لك أنني أريد أن أوضح الأشياء.

- أنت تخاف أن أسمع القصة من سواك؟ أليس كذلك؟

- نعم.. لذلك أريد أن أصارحك..

طوت قفازيها، ثم فتحت الحقيبة، ورمتهما فيها، وأغلقتها بعنف:

- تريد أن تسدّ كل الطرق الأخرى حولي؟

- عن أية طرق تتحدثين؟ لا تكوني غبية.. أنا لا أريدك أن تغضبي لمجرد أن أحدهم حرّف القصة لك، أو كذب عليك..

نظرت إليّ بهدوء، وكنت ألاحظ الثورة العميقة في عينيها..

- تريد أن تروي القصة أنت.. وسوف يظهر البطل مسكيناً

للغاية.. أعتقد أنك ستقول: لقد رمت شبكة عليّ وسحبتي خلفها؟
عشاً.. كان يجب ألا أبدأ بالحديث.. كيف يمكن لي أن أصل إلى
الموضوع دون مقاطعة؟ اقتربت منها، ووضعت يدي على ظهر
المقعد خلفها.

- غيداء.. حاولي أن تفهمي.. كانت لي علاقة مع ندى.. والآن
انتهت العلاقة.. هذا هو ما أردت قوله منذ البدء.

ابتعدت قليلاً، ودفعت رأسها للوراء:

- ولماذا تقوله لي؟

- لأنك يجب أن تعرفي..

- هل قلته لها؟

- كلا..

هزّت رأسها، وحدقت إلى الأرض، وخيّل إليّ أنها على وشك أن
تبكي..

- كلا، لم أقله، ولكنها تعرفه..

- كيف؟

- لست أدري!.. يخيّل إليّ أنها تعرفه..

أطلقت همسة سخرية مغممة، ورفعت شعرها بأصابعها..

وسألت ببرود:

- أهذه هي القصة؟

هزرت رأسي موافقاً، فأضافت:

- يعني، إذا رأيتهما معاً ذات يوم، يجب أن أقول لنفسي: لا شيء في الأمر ولا أهمية له.. لقد كفّ عن حبها.. أليس هذا ما تريده؟

- كلا، ليس هذا ما أريده.. الذي أريده هو أن تقولي لمن ينقل لك القصة: هذا ليس شأنك.. أنا أعرف كل شيء..

- ولكنني لا أعرف كل شيء.. أليس كذلك؟ أنت لم تقل لي كم مرة قبلتها وكيف؟ كم مرة قلت لها أحبك.. تراك كنت تقبلها كما تقبلني الآن؟ تغمض عيني بإبهاميك وتغرس بقية أصابعك في شعري، عند أذني؟..

- غيداء..

نهضت واقفة حاملة حقيبتها، وكان غضبها مجنوناً:

- أنا لا أعرف شيئاً.. من يدري.. ألم تقل لها أن ثمة علاقة لك مع واحدة.. نعم، مع واحدة.. ولكنها علاقة غير مهمة؟ وصل الأمر إلى الذروة، فاسترخيت في يأس وأغمضت عيني، خبطت خطوتين، ثم عادت فواجهتني:

- أرجو أن لا تعتبر نفسك فارساً تترامى البنات على قدميه..

أنت لست إلا صفحة بيضاء كذابة.. أنت كذاب..

سمعت وقع خطواتها يتعد بعصبية، بينما بقيت عيناى

مغلقتين..



سوف يكون الأمر أكثر سهولة مع ندى.. وإذا ما انتهى الأمر

معهـا يصير من السهل استرضاء غيداء مرة أخرى.. هذه كانت نقطة

ضعف مهلكة، أن لا أنهي الأمر تماماً مع ندى قبل أن أصرح غيداء..

لماذا لم أنه الأمر مع ندى أولاً؟ على الأقل، إن ندى ترك المرء يقول

كل ما في رأسه قبل أن تقاطعه، وتجعله يقول ما تريده هي..

- لقد عدت أيها الشقي! ألم أطلب منك أن لا تأتي لمكان

عملي؟ ماذا دهاك، هل برّحك الشوق؟

تشاغلـت بلمس قطعة قماش مفروشة أمامها، وهمست:

- ندى.. لديّ ما أقوله..

- سوف لن أحضر لك كرسيّاً.. يجب أن تبقى واقفاً في المحل،

ألم أقل لك ذلك.. لماذا تبدو كئيبيّاً؟

- بسبب ما أريد قوله الآن..

ابتسمت، ونظرت إليّ من طرفي عينيها فيما أخذت تطوي
قطعة القماش حول خشبتها:

- لا تكذب.. أنت كئيب لأنني لم آت لموعدهك الأخير.. ولكن
صدقني، لقد كنت مشغولة جداً..

- ندى، أنا مقدم على الزواج..

رفعت عيني، فجأة، وجمّعت كل طاقتي لأنظر إليها مباشرة،
ولكنها استمرت في طوي القماش، واتعست ابتسامتها:

- ورغم ذلك.. فأنت لن تثير غيرتي.. فتش عن كذبة أخرى..

- ندى، أنا لا أحاول أن أثير غيرتك.. أنا مقدم على الزواج فعلاً..

حملت رزمة القماش، ودستها في مكانها، ثم عادت، فنظرت

إليّ متكئة على الحاجز القائم بيننا:

- وما اسم العروس؟

- غيداء..

ضربت يدها على فخذهما بدلال، وهزت رأسها ببطء:

- أيها العزيز.. ألم يسعفك رأسك إلا بهذا الاسم الشعاري؟ أنت

تسقط دائماً في حفر صغيرة.. لماذا لم تقل ليلى مثلاً، أو زينب..

ألسنت تعتقد أنه اسم واقعي أكثر؟

- ندى.. أنا أحبها..

- أوه أيها العزيز، أوه.. مجرد إخلافي لموعد واحد يجعلك ترمي إلى إيلامي بهذه الصورة؟ لماذا لا تكف عن اللعب؟
لا، لا يمكن أن يستمر هذا.. اقتربت من الحاجز ومسكتها من زنديها..

- أنا لا ألعب.. أنا أحب واحدة اسمها غيداء، وأريد أن أتزوجها..
ولماذا تقول ذلك لي أنا؟ قلها..

تحيرت، ومضيت أفتش عن نقطة بدء أخرى.. بينما أطلقت هي ضحكة قصيرة، وسحبت زنديها من كفي، واستندت إلى رف القماش:
- خيالك يقصر دائماً.. متى تريد أن أراك؟
- لا أريد أن أراك؟؟ أريد أن أتزوج!

كتفت ذراعيها على صدرها، واستمرت في الابتسام:
- تزوج.. أأست ترى أنني أقوى من أن تثار غيرتي بكذبات من هذا الطراز؟.. من الذي علمك أن تصل إلى الحب عن طريق الغيرة
أيها الشقي؟

- لا أحد.. لا أحد علمني.. كيف يمكن أن أقنعك.. كيف؟
عادت فاقتربت من الحاجز، ومثلت دور المتألم:
- أوه أيها العزيز.. إنني أكاد أموت غيرة.. وأنت ممثل بارع..
أقسم بشرفي، أيها العزيز، لقد كنت مشغولة يوم موعدك.. لماذا لا

تصدق؟

لم أعد أستطيع إيقاف غضبي، فانفجرت:

- لماذا لا تصدقن أنت؟

- أنا؟ أنا أصدقك تماماً..

لمست ظاهر كفي بأناملها، وأسقطت رأسها على صدرها، ثم

رفعت عينيها بدلال:

- هل صدقت؟ حسناً.. متى تريد أن أراك أيها العاشق؟

بيروت - ١٩٦١

موت سرير رقم ٢١

عزيزي أحمد،

اخترتك أنت بالذات لهذه الرسالة لسبب قد يبدو لك تافهاً، لكنه أضحى - منذ أمس - مرتكز تفكيري كله. اخترتك أنت بالذات لأنني حينما رأيته مساء أمس يموت على السرير الأبيض العالي تذكرت كم كنت تستعمل كلمة الموت للتدليل على التطرف. لطالما سمعت منك أمثال هذه الجمل: «كاد يموت من الضحك» و«إنني تعب حتى الموت» و«إن الموت لا يستطيع أن يسكت حبي» وإلى آخر ما هنالك. صحيح أننا كلنا نستعمل هذه الكلمات ولكنك أنت تستعملها أكثر من الجميع. وهكذا فلقد تذكرتك وأنا أراه ينكمش في سريره، ويشد أصابعه الطويلة النحيلة على غطاء الفراش ثم ينتفض، ويحدق إليّ بعيون ميتة.

لماذا لا أبدأ لك القصة من أولها؟ أنت تعرف لا شك أنني أقضي شهري الثاني في هذا المستشفى، إنني أشكو من قرحة في أمعائي،

وكلما سد الجراح ثقباً هناك انفتح في رأسي ثقب جديد لا يدري عنه شيئاً، صدقني يا أحمد أن «قرحة» الدماغ أقسى بكثير من قرحة الأمعاء. إن غرفتي تطل من ناحية بابها على الممر الرئيسي لجناح الأمراض الداخلية، وتطل نافذتها على حديقة المستشفى الصغيرة. وهكذا فإنني أستطيع أن ألاحظ، وأنا متكئ على وسادتي: المرضى الذين يمرون بلا انقطاع أمام الباب، والعصافير التي تطير، بلا انقطاع أيضاً، أمام النافذة. وفي هذا العجيج من الناس الذين يأتون إلى هنا ليموتوا تحت طمأنينة المبضع، والذين أراهم آتين على أقدامهم، مغادرين بعد أيام أو ساعات، على عربة الموت، ملفوفين بغطاء أبيض، في هذا العجيج أجد نفسي غير قادر على وقف نزيف الأسئلة التي تجار بلا رحمة..

ولسوف أغادر المستشفى بعد أيام قليلة، فلقد رقعوا أمعائي ما وسعهم ذلك. أستطيع الآن أن أسير معتمداً على ذراع ممرضة عجوز قبيحة، وعلى قوة فضولي. إن المستشفى لم يفعل شيئاً سوى أنه نقل القرحة من أمعائي إلى رأسي، إن الطب هنا، كما قلت للعجوز القبيحة، يستطيع أن يسد ثقباً في الأمعاء ولكنه لا يستطيع مطلقاً أن يجد أجوبة ليسد بها ثقباً في التفكير، لقد ضحكت العجوز يومها عن أسنان ناقصة مسودة، وقادتني بهدوء إلى الميزان.

على أي حال ما لنا ولهذا الحديث، إنني أريد أن أتكلم عن الموت؛ عن موت يحدث أمامك لا عن موت تسمع عنه، إن الفرق بين هذين الطرازين من الموت فرق شاسع لا يستطيع أن يدركه إلا من يشاهد إنساناً يتكلمش بغطاء سريره بكل ما في أصابعه الراجفة من قوة كي يقاوم انزلاقاً رهيباً إلى الفناء، كأنما يستطيع الغطاء أن يشده عن ذلك الجبار الذي يستل من عيونه شيئاً فشيئاً، هذه الحياة التي لا نعرف عنها شيئاً.

وحينما كان ينتفض والأطباء حوله ينتظرون، تصفحت البطاقة المعلقة على ذيل السرير. كنت قد تسلمت من غرفتي ووقفت هناك، وكان الأطباء مشغولين عني بمحاولة يائسة لإنقاذ الميت، وقرأت «الاسم: محمد علي أكبر. العمر: ٢٥ عاماً. الجنسية: عُمانية». وقلبت الورقة قارئاً مرة أخرى: «سرطان في الدم». عدت أحرق إلى الوجه النحيل الأسمر والعيون الراحبة الواسعة والشفاه التي ترتجف كبحر من مياه بنفسجية. لقد دارت العيون حتى استقرت على وجهي وخيل إلي أنه يستغيث بي. لماذا؟ ألأنني كنت أطرح السلام عليه كل صباح؟ أم لأنه شاهد في وجهي فهماً للرعب الذي يعانيه؟ لقد بقي يحدق إلي. ثم، ببساطة، مات..

عندها فقط اكتشفني الطبيب فجرتني غاضباً إلى غرفتي، ولكنه

لم يستطع قط أن يبعدني عن المنظر المائل في ذهني. صعدت إلى سريري وسمعت صوت الممرض يقول ببساطة في الممر المجاور للباب:

- مات سرير رقم ١٢!

قلت لنفسني: «لقد فقد محمد علي أكبر اسمه، إنه سرير رقم ١٢»؟ ولكن ما الذي أعنيه حينما أتحدث الآن عن إنسان كان اسمه محمد علي أكبر؟ وما الذي يهمله من أن يكون ما زال محتفظاً باسمه أم يكون هذا الاسم قد استبدل برقم ما؟ وتذكرت في تلك اللحظة كم كان يرفض أن يُحذف شيء من هذا الاسم حينما كان ينادى به عليه، كانت الممرضة تسأله في كل صباح:

- كيف حالك يا محمد علي؟

وكان محمد علي لا يجيب إذ إنه كان يعتبر أن اسمه هو محمد علي أكبر، هكذا، دفعة واحدة، وأن محمد علي هذا الذي تسأله الممرضة إنسان آخر.

وكان الممرضون يجدون في هذا الإصرار على وحدة الاسم مادة للمداعبة، ولكن محمد علي أكبر لم يتخل قط عن جديته في الموضوع، ربما كان يعتبر أن حقه في امتلاك اسمه الكامل هو إصراره على أن يمتلك شيئاً ما.. لقد كان فقيراً، فقيراً جداً، أكثر مما

تتصور أنت بخيالك الباذخ المتسكع في المقهى، كان الفقر شيئاً محفوراً في وجهه، على زنديه، في صدره، في طريقة أكله، في كل ما يحيط به من أشياء.

حينما استطعت أن أسير على قدمي لأول مرة بعد عملية الترقيع، زرته، كان ظهر سريره مرفوعاً، وكان جالساً بشرود غريب، لقد جلست على طرف السرير هنيهة تبادلنا فيها حديثاً موجزاً باهتاً، ولفت نظري أنه يضع إلى جانب وسادته صندوقاً خشبياً عتيقاً منقوشاً عليه اسمه بحروف نصف فارسية، مربوطاً ربطاً محكماً بخيط من القنب، وفيما عدا ذلك كان لا يملك شيئاً سوى ملابسه المحفوظة في خزانة المستشفى. أذكر يومها أنني سألت الممرضة.

- ماذا في هذا الصندوق العتيق؟

وقالت الممرضة وهي تضحك:

- لا أحد يدري. إنه يرفض أن يتخلى عن هذا الصندوق لحظة واحدة.

ثم مالت علي وهمست:

- هؤلاء الفقراء المظهر يخفون عادة ثروة ما، قد تكون هذه

هي ثروته!

وطوال وجودي هنا لم يزره أحد في المستشفى، لم يكن يعرف أحداً، وهكذا فلقد كنت أرسل له شيئاً من الحلويات التي يغدقها علي زواري. وكان يقبل كل شيء بلا حماسة. لم يكن يجيد الشكر وكان هذا التصرف يورثني شيئاً من الحنق العابر.

لم أهتم بالصندوق اللغز. وكانت حالة محمد علي أكبر تسوء باتصال، ورغم ذلك فإن موقفه من الصندوق لم يتغير، مما جعل الممرضة تقول لي إنه لو كان في الصندوق ثروة ما لكان وزعها أو أوصى بها طالما هو يتجه بهذه السرعة للموت. ولقد ضحكت يومها كالحكماء الصغار قائلاً لنفسه إن غياب هذه الإنسانية لا يكاد يبلغ حده، إذ كيف تريد من محمد علي أكبر أن يقيم دليلاً على نفسه بأنه لا محالة هالك؟ وبأنه ليس ثمة أي أمل بالنجاة؟ إن إصراره على الاحتفاظ بالصندوق هو بمثابة إصراره على الاحتفاظ بأمله في أن ينجو ويعود لصندوقه ويعود صندوقه له.

وحينما مات محمد علي أكبر شاهدت الصندوق إلى جانبه كما كان كل يوم، وخطر ببالي أن من الواجب علينا أن ندفن الصندوق معه دون أن نفتحه، ولكن هذا الخاطر لم يكن يعني شيئاً بالنسبة للقضية، وذهبت إلى غرفتي، وطوال تلك الليلة لم أنم، كان محمد علي أكبر محفوظاً في المشرحة مصوراً بغطاء أبيض، ولكنه كان،

في الآن ذاته، يجلس في غرفتي يحدق إلي، ويمر في عنابر
المستشفى، ويتفقد سريره، وأكاد أسمع أنفاسه تلهث قبل أن ينام،
وحينما أشرق الصباح على أشجار حديقة المستشفى كنت قد
كونت لنفسي قصة كاملة عنه.



محمد علي أكبر فقير من الحي الغربي في قرية «إبخا» في
عُمان، شاب نحيل أسمر يتقد في عينيه طموح لا يعرف كيف ينطلق.
صحيح أنه كان فقيراً ولكن ماذا يعني الفقر للمرء إذا كان لم ير في
حياته شيئاً سواه؟ إن «إبخا» كلها تشكو الفقر، وهو فقر مماثل تماماً
لما يعانيه محمد علي أكبر ولكنه كان فقراً قنوعاً، فقراً مستقراً يفتقر
لحافز يجعله يشعر بأنه الخطأ وبأن هنالك شيئاً اسمه «غنى»، وهكذا
فإن القريتين، اللتين كان يحملهما محمد علي أكبر على كتفيه قارعاً
أبواب الناس كي يبيعهم ماء، كانتا الكفتين اللتين تقيمان الميزان،
لقد كان محمد علي أكبر يستشعر شيئاً من الدوار حين كان يتغلى
عن قربتيه، وكان حين يحملهما كل صباح يحس بأن حياته إنما تجري
باطمئنان وأنه قد أمن على مسير متوازن لا ينحرف.

كان من الممكن أن تستمر حياة محمد علي أكبر على هذا المنوال المنظم الهادئ، كان من الممكن أن يحدث ذلك لو أن القدر كالحضارة، أعني لو أن القدر لم يصل إلى عُمان البعيدة، كما لم تصل الحضارة إلى هناك، ولكن القدر كان موجوداً حتى في عُمان البعيدة، وكان لا بد لمحمد علي أكبر من أن يعاني قليلاً من مزاج هذا القدر.

حدث ذلك في صباح قائف. كان تراب الطريق ساخناً رغم أن الشمس لم تكن قد استوت بعد في السماء. وكانت هنالك نسيمات شمالية تنفخها الصحراء في وجهه مع قليل من التراب، لقد قرع باباً فأطلت من فتحته سمراء صغيرة بعيون واسعة سوداء، وحدث كل شيء بغاية السرعة، لقد وقف أمام الباب كأخرق أضاع اتجاه الطريق والقربتان تتمايلان على كتفيه الضامرتين، وأنشأ يحدق إليها بلا وعي، يتمنى، كإنسان مصاب بضربة شمس خفيفة، أن تكون لعيونه قدرة سحرية على ضمها، وعصرها. وبادلتها هي التحديق من باب الاستغراب ليس غير، ولما لم يقو على قول أي شيء، أدار ظهره ووقل عائداً بقربتيه إلى الدار.

ورغم أن محمد علي أكبر يمتاز بأنه خجول حتى أمام أهله، فإنه يومئذ لم يجد أي مناص من أن يسكب الأمر بين يدي أخته

الكبرى. كانت أمه قد ماتت بالجدرى منذ زمن طويل، وكان أبوه مقعداً لا يقوى على الحركة، وهكذا طلب العون من أخته إذ إنه كان يثق بما لا يقبل الجدل بأن «سبيكة» أخته هذه، تتمتع بذكاء واتزان يجعلانها قادرة على حل مشكلة من هذا الطراز. كانت جالسة قبالتها على الحصير متدثرة بثوبها الأسود الخشن، وبقيت صامتة حتى لهث محمد علي أكبر آخر قصته أمامها ثم قالت:

- أخطبها لك.. أليس هذا ما تريده؟

- نعم، نعم. هل هذا ممكن؟

قالت أخته وهي تنتزع قشة من الحصيرة القديمة:

- ولماذا لا؟ أنت أصبحت شاباً وكلنا في إبخا سواء.

وبات محمد علي أكبر تلك الليلة على قلق من نار، حتى إذا ما أشرق الصبح قام إلى أخته فوجدها أشد توقاً منه إلى الذهاب، وتواعداً على أن يلتقيا في الدار عند الظهيرة فتعرض عليه نتاج مساعيها ومن هناك يعدان معاً مشروعهما لإكمال القصة.

لم يدر محمد علي أكبر كيف أمضى وقته يدور في الأزقة وقرب الماء على كتفيه. كان يواصل التحديق إلى ظله يدعو الله أن يجعله دائرة حول قدميه كي يشد ساقيه عائداً إلى الدار. ولقد حلت الظهيرة بعد لأي فعاد أدراجه واستقبلته أخته على الباب:

- يبدو أن أمها توافق. ولكن القضية لا بد أن تعرض على أبيها.
وسوف يرد أبوها الجواب بعد خمسة أيام!

ترسب عند محمد علي أكبر شعور بأنه لا بد ينجح في خطبتها.
وانطلق منذ ذلك اليوم يني على قدر ما أعطاه خياله، صوراً للغد
مع السمراء الصغيرة الجميلة. وكانت أخته سبيكة ترقب الأمر بعين
حكيمة مجربة.. ثم أنها كانت واثقة من النجاح.. فهي متأكدة من
نظافة اسمه في أفواه إخوانه في «إبخا» وكانت من ناحية أخرى
تهتم كثيراً بموافقة أم الفتاة، ذلك أنها كانت تعرف كيف تستطيع
المرأة أن تقدم أية فكرة لزوجها وتجعله يقتنع بها كأنه هو صاحبها..
ولذلك كانت سبيكة مطمئنة تمام الاطمئنان إلى مصير القضية.

وفي اليوم الخامس ذهبت سبيكة إلى دار الفتاة كي تأتي بآخر
جواب.. ولكنها عادت ووجهها مكسو بفشل حزين. لقد وقفت
هناك في زاوية الغرفة غير قادرة على وضع عيونها في عيون محمد
علي أكبر، ولم تدر كيف تبدأ، وحينما استطاعت أن تستجمع
شجاعته قالت:

- يجب أن تنساها يا محمد علي.

لم يدر ما يقول فأخذ ينتظر أن تتم أخته حديثها، ووجدت
سبيكة في صمته فرصتها لكي تتابع..

- لقد مات أبوها قبل يومين، وكانت وصيته الاخيرة لأهل داره
أن لا يزوجوها لك.

سمع محمد علي أكبر الكلام كأنه موجه لإنسان آخر ولكنه لم
يملك سوى أن يسأل:

- ولكن لماذا يا سبيكة.. لماذا؟

- قيل له إنك شقي تعيش على سرقة الخراف على طريق
الجبل وإنك تتجر مع الأجانب بسرقاتك.
- أنا؟

ولم تستطع سبيكة أن تحافظ على تماسك صوتها فرجفت
أمامه:

- ظنوا أنك محمد علي.. أتعرف محمد علي الشقي؟ لقد ظن
والدها أنه أنت..

قال كطفل يبزر ذنباً لم يرتكبه، باسطاً كفيه أمامه:

- ولكني لست محمد علي.. أنا محمد علي أكبر..

- حدث خطأ.. قلت لهم في أول مرة أن اسمك محمد علي، لم
أقل محمد علي أكبر لأنني لم أشعر بحاجة لكي أقول..

أحس محمد علي أكبر بصدره يتهاوى تحت ثقل اللطمة. ولكنه
بقي واقفاً مكانه يحدق إلى أخته سبيكة دون أن يراها تماماً، كان

الغضب يعميه، وحاول أن يضرب سهما أخيراً:

- هل قلت لأمها إنني لست محمد علي وإنني محمد علي

أكبر؟

- نعم ولكن وصية الأب الأخيرة كانت ألا يزوجوها لك!

- ولكنني محمد علي أكبر.. بائع الماء.. أليس كذلك؟

ما الفائدة من كل القلق الذي اعتراه؟ لقد انتهى كل شيء

ببساطة، كلمة واحدة وقفت في حلق القضية، فماتت، لم يستطع

محمد علي أكبر أن ينسى الفتاة ببساطة وظل يحوم حول بيتها

طامعاً في أن يراها مرة أخرى. لماذا؟ لم يكن يدري. ولكن فشله

المتصل جعله يحمل في صدره غضباً ضارياً تحول إلى كراهية، ثم

لم يعد يستطيع محمد علي أكبر أن يمر في تلك الطريق مخافة أن

يستبد به الحنق، فيرمي نافذة بيتها بحجر.

من ذلك اليوم بدأ يرفض إلا أن ينادى باسمه الكامل.. «محمد

علي أكبر» دفعة واحدة.. وكان يرفض أن يجيب على أي إنسان

يناديه بـ «محمد» فقط أو بـ «محمد علي» ثم ما لبث هذا الرفض

أن أصبح عادة.. حتى أخته سبيكة كانت لا تجرؤ على تمزيق اسمه..

لقد كان محمد علي أكبر في كل مكان ينادى باسمه الكامل دفعة

واحدة..

ورغم ذلك، فإن القناعة لم تعد تدخل إلى صدره قط.. وبدأت «إبخا» تتحول في عينيه شيئاً بعد شيء إلى مقبرة قاتمة.. لقد رفض إصرار أخته على تزويجه.. وبدأت دودة اسمها «الثروة» تنخر في رأسه.. لقد أراد أن ينتقم من كل شيء.. أن يتزوج امرأة يتحدى بها كل «إبخا».. وكل الذين لا يصدقون أنه محمد علي أكبر، وليس محمد علي الشقي.. ولكن أين يجد الثروة؟ وهكذا قرر أن يركب البحر إلى الكويت..

المسافة بين «إبخا» ورأس الخيمة ساعتان سيراً على الأقدام، ومن رأس الخيمة إلى الكويت عن طريق البحر رحلة تستغرق ثلاثة أيام.. وأجرة الرحلة على مركب مهلهل تكلف سبعين روبية.. فإذا دفعها، فإنه يستطيع أن يبدأ في الكويت حياة جديدة.. ويستطيع بعد عام أو عامين أن يعود إلى عُمان.. ويستطيع أن يتخطى في أزقة «إبخا» لباساً عباءة بيضاء ناصعة مذهبة الحواشي، كتلك التي شاهدها على كتفي وجيه من وجهاء رأس الخيمة، أتى لبلدته كي يخطب فتاة وصلت شهرة جمالها حتى داره.

لقد كانت الرحلة شاقة حقاً.. إن المركب الذي حمل هذا الحشد الطموح عبر الجنوب، ثم صعد المضيق إلى الشمال قاصداً ركن الخليج تعرض بصورة متصلة لأخطار عجيبة.. ولكن النفوس

الجياشة التي اعتادت مشاق الحياة لم تكن تبالي بشيء، وكانت الأيدي كلها تتعاون على إنقاذ هذه الخشبة الطافية فوق زبد البحر الكبير.. وحينما أطلت صواري المراكب مستلقية في ميناء الكويت الهادئ أحس محمد علي أكبر بشعور غريب.. لقد سقط الحلم الآن من عالم التصور الملون إلى الحقيقة.. وأضحى عليه الآن أن يفتش عن طريق البدء.. عن أول الحلم.. خيل إليه أن الخيالات التي غذتها كراهيته لإبغا ليست كافية للانتقام منها.. وحين كان المركب الواهن يقترب جاراً نفسه من المراكب الراسية، كان شعوره يهبط إلى الأرض رويداً رويداً، وبدا له، لمدى لحظات قصار، أن أحلامه الطويلة عن الثروة كانت سلوى فشله المفاجئ، وأنها لم تكن تحمل أي ذرة من المعقول.. بدت له الشوارع الخاصة والأبنية ذات الجدران الصلبة، والسماء الرمادية، والقيظ، والهواء الشمالي الساخن، والطرق المزدحمة بالسيارات، والوجوه الجادة.. بدت له كل هذه الأشياء سدوداً تقف بينه وبين حلمه.. لقد كان يغذ الخطى سائراً على غير هدى في هذا الخضم من الناس مستشعراً الضياع الذي يشبه الدوار.. ظاناً، حتى أطراف اليقين، أن الوجوه هذه الكثيرة التي لا تنظر إليه هي أعداؤه الأول.. وأن هؤلاء الناس، كلهم، هم الجدران التي تعترض أول طريقه إلى حلمه.. لم تكن القصة هينة كما في

«إبخا»، كانت القصة هنا بلا بدء، بلا نهاية، بلا ملامح، وبدت له كل الطرق التي سار فيها أنها لا تنتهي.. وأنها تدور حول سور يحتضن كل شيء.. كل شيء على الإطلاق.. وحينما قاده طريق ما إلى الشاطئ عند الغروب ورأى البحر مرة أخرى.. وقف يحدق عبر الأفق البعيد المتصل بالماء.. كانت «إبخا» هناك.. ملفوفة بالهدوء.. موجودة على أي حال.. كل حي فيها له بدء وله نهاية.. وكل جدار يحمل ملامحه الخاصة.. كانت قريبة من قلبه رغم كل شيء.. وكان يحس أنه ضائع في دوامة من الماء الساخن.. ولأول مرة لم يراوده أي احساس بالخجل حينما رفع أصابعه، ومسح دمعاً مالحاً كان يملأ خديه..

لقد بكى محمد علي أكبر دون حرج.. قد يكون بكى لأول مرة منذ شب، واجتاحه، على حين غرة، شوق ضارٍ لقربتي الماء يحملهما على كتفيه.. كان ما زال يحدق إلى الأفق، وكان الليل يهبط شيئاً فشيئاً حواليه.. فيجعله يحس نوعاً ما، بأنه موجود في مكان ما.. في زمان ما.. وأن هذا الليل كليل «إبخا».. الناس ينامون خلف جدرانهم.. والشوارع تحمل ملامح التعب والصمت.. والبحر يهدر لاهثاً تحت ضوء القمر.. شعر بالراحة، ورغب في أن يضحك، ولكنه لم يستطع، فعاد يبكي..

أعطاه الفجر دفقة من أمل جديد.. فقام يجري في الشوارع.

إنه يعرف، إلى حد بعيد، أن عليه أن يجد إنساناً من عُمان يتحدث معه.. ولسوف يجد هذا الإنسان إن عاجلاً أو آجلاً، ومن هناك سوف يعرف أين يتعين عليه أن يخطو، أن يبدأ!

وهكذا، وصل محمد علي أكبر إلى مركزه كفرّاش في دائرة ما.. لقد صُرفت له دراجة يقضي عليها حوائج دائرته.. ومن على ظهر هذه الدراجة بدأت ملامح الشوارع، ومعاني الجدران تدخل إلى رأسه.. أحسّ بشيء من الألفة.. ولكنها ألفة ملصوقة على خلفية من شعور قائم بأنه إنما يلاحق بعيون أخته سبيكة، وبخصاص نافذة الفتاة، وبمحمد علي الشقي الذي سبّب من حيث لا يدري، كارثة مروعة.

لقد مضت الشهور كما تمضي عجلات الدراجة فوق الطريق. كانت الثروة قد بدأت ترد.. وكان محمد علي أكبر يتمسك بثروته الصغيرة، بكل قواه مخافة أن تجتاحها نزوة عابرة، أو يتسلط عليها شقي. ومن هنا نبعت فكرته في أن يصنع صندوقاً خشبياً متماسكاً يحفظ فيه ثروته.

ولكن ما هي ثروة محمد علي أكبر؟ إنها شيء لا يقدر بثمن! فحينما جمع محمد علي أكبر من ثروته قدراً معيناً من المال اشترى به عباءة بيضاء شفافة، مذهبة الأطراف.. وكان في كل مساء، حينما

يخلو إلى صندوقه، يخرج منه العباءة المطوية باعتناء.. ويمرر أصابعه السمرء النحيلة فوقها بحنان.. وينشرها أمام عينيه، ويسكب فوقها أحلامه الصغيرة، راسماً على أطرافها شوارع قرينته كلها. والنوافذ الواطئة المشبكة بالخشب، تطل من خلفها عيون الصبايا. وهناك، في ركن من العباءة، كان الماضي منزوياً لا يقوى على العودة، ولكن وجوده كان ضرورياً من أجل أن يعطي العباءة قيمتها الحقيقية.. وكانت الأصابع النحيلة تعيد طي العباءة بالحنان نفسه، وتطمئن إليها في صندوقها الخشبي.. وكانت نفس الأصابع تربط الصندوق بخيط قوي من القنب.. وساعتها، كان يحلو النوم.. ساعتها فقط!

وكان ثمة في الصندوق، حلق خزفي لأخته سبيكة تزين به أذنيها إذ يعود «لإبخا».. وزجاجة من عطر قوي، وصرّة بيضاء مصرورة على ما يسره الله له من نقود، معقودة على أمل أن تزداد يوماً بعد يوم.

أما النهاية فلقد بدأت ذات مساء، حينما كان يعيد دراجته إلى المخزن، أحس بشيء يحترق في أطرافه، وهاله أن يكون قد ضعف إلى هذا الحد، وبهذه السرعة، ولكنه لم يأبه كثيراً لذلك، فإن نوبات الارتجاف كانت تأتيه حينما يشتد به الحنين لسبيكة ولإبخا وللعودة.. ولقد أحس بذلك الضعف مرفقاً بحنين ضار لكل الأشياء

التي كرهها، وأحبها، وهجرها، وشكلت ماضيه كله.. وهكذا فلقد طوى محمد علي أكبر الطريق إلى داره على هذا الظن.. ولكن لا الضعف ولا الحنين غادراه حتى منتصف نهار اليوم التالي.. وعندما حاول أن يقوم من فراشه تعجب أن يكون قد نام حتى الظهيرة دون أن يصحو مبكراً كالعادة، والذي هاله أكثر أنه كان ما يزال يستشعر الضعف ينخر في عظامه.. لقد فكر قليلاً خائفاً بعض الشيء، وتصور نفسه في لحظة واحدة واقفاً على شاطئ البحر ووهج الشمس المنعكس على الماء يكاد يعميه، كانت قلتا الماء على كتفيه، وكان يستشعر إرهاقاً مضنياً، لقد اشتد انعكاس الشمس، ورغم ذلك لم يكن باستطاعة عينيه أن تنغلقا.. كانتا تحترقان.. ودون أن يفكر، عاد إلى النوم..

هنا، انتهى الزمن، كما يفهمه أي مخلوق، بالنسبة لمحمد علي أكبر، لقد جرى كل شيء فيما بعد وكأنه كان مرفوعاً عن الأرض، وكأن رجله كانتا مدلتين دون أن تلمسا شيئاً، كالمشقوق، كان هو الذي يتحرك أمام لوحة الزمن، أما اللوحة فلقد كانت جامدة كجبل من بازلت.. لقد انتهى دوره كإنسان ممارس، وأتى دوره كمتفرج فقط.. كان يحس بأنه لا يوجد رباط يشده إلى أي شيء.. بأنه بعيد وبأن كل الأشياء التي تتحرك أمامه عبارة عن أسماك داخل كوب

زجاجي كبير.. وكانت عيناه المنفرجتان رغم ذلك - زجاجيتين أيضاً.

وحينما صحا، مرة أخرى، شاهد رجالاً يحملونه من ساعديه وساقيه، كان منهكاً ولكنه وجد القوة التي تذكره أن هنالك شيئاً ضرورياً فصاح بصوت واه:
- الصندوق.. الصندوق.

ولكن أحداً لم يهتم به.. فقام بحركة يائسة من أجل أن يعود إلى صندوقه، لقد انتفض بكل قواه وهتف من صدره اللاهث:
- الصندوق!

ومرة أخرى لم يسمعه أحد..
كان قد وصل إلى الباب. فتمسك بخشبة الوسط وعاد يلهث بصوت أبيض:
- الصندوق..

ولم يحتمل الجهد فوقع في غيبوبة شاطئ البحر نفسها.. كان يحس، هذه المرة، أن مد البحر يعلو قدميه شيئاً فشيئاً، وأن الماء شديد البرودة.. وكانت يدها تتمسكان بصخرة مربعة تغوص به إلى أدنى.. وحينما صحا من جديد وجد نفسه يتعبط صندوقه العتيق المربوط بخيط من القنب، وكانت ثمة أشباح بيضاء تمر من أمامه

ذاهبة آية.. وكانت هنالك إبرة مغروسة في ساعده ووجهه يطل عليه من فوق..

مضت أيام طويلة.. أنقول أياماً طويلة فحسب؟

الصحيح أنه لم يمر شيء بالنسبة لمحمد علي أكبر، لقد استمرت قسوة الألم بكيفية ما.. لم يكن يحس بمرور هذه القسوة. كان يحسّ باستقرارها واستمرارها فقط.. وصار البحر يمتزج بنوافذ مشبكة الخشب واطئة على طرف الطريق، وبحلق من الخزف، وبعباءة مبلولة بماء مالح، وبمركب معلق فوق الموج لا يتحرك، وبصندوق خشبي عتيق.

مرة واحدة فقط، أحس بعلاقة ما مع العالم.. لقد كان، كلا لم يكن، حينما سمع صوتاً إلى جانبه:

- ماذا في الصندوق العتيق؟

نظر إلى مصدر الصوت، وشاهد، كمن يحلم، وجهاً لشاب حليق بشعر أشقر يشير إلى الصندوق وينظر إلى شيء ما..

كانت لحظة التذكر قصيرة.. إذ عاد ينظر إلى البحر بصمت ولكن وجه الشاب الحليق الأشقر كان ما زال أمامه أيضاً. أحس بعدها بنشاط مفاجئ، لقد توضحت الأشياء بلا سبب. وشاهد شروق الشمس بوضوح لأول مرة منذ وقع.. وخيل إليه أنه قادر على

القيام من فراشه والعودة إلى دراجته.. لقد توضح كل شيء: كان الصندوق إلى جانبه، وكان مربوطاً كما كان، شعر باطمئنان وتحرك لينهض، ولكنه فوجئ بحشد من الرجال ذوي الملابس البيضاء حوله ينظرون إليه بفضول.. حاول محمد علي أكبر أن يقول شيئاً ولكنه لم يستطع، وأحس فجأة بأن المد قد علا حتى وسطه وأن الماء برد إلى درجة لا تحتمل، لا تحس.. لقد مد ذراعيه كي يتمسك بشيء ما خوف أن يغرق، ولكن كل شيء كان ينحني تحت أصابعه. وفجأة رأى أمامه الوجه الحليق للشاب الأشقر فحرق إلى خائفاً منه على صندوقه بعض الشيء، فيما استمر الماء يعلو ويعلو حتى حجب عن عينيه ذلك الوجه الأشقر الحليق..

- لقد مات سرير رقم ١٢..

هتف الممرض، بينما لم أستطع أن أتحرر من عيون محمد علي أكبر وهي تحرق إلي قبل أن يموت.. لقد تصورت أن محمد علي أكبر الذي كان يرفض أن يمزق اسمه إلى قطع صغيرة، تصورت أن محمد علي أكبر هذا سوف يقتنع الآن بأنه سرير رقم ١٢ لو اطمأن فقط إلى مصير صندوقه.. لو اطمأن..

هذه يا عزيزي أحمد قصة محمد علي أكبر، سرير رقم ١٢، الذي مات مساء أمس، والذي يستلقي الآن ملفوفاً بقماش أبيض في

المشرحة.. الوجه النحيل الأسمر الذي نقل القرحة من أمعائي إلى رأسي.. والذي جعلني أكتب لك، كي لا تقول مرة أخرى أمامي جملتك المشهورة «كدت أموت من الضحك».

ودم لأخيك



عزيزي أحمد

لم أغادر المستشفى بعد، إن صحتي تتدرج نحو أن تكون طبيعية وطريقتي في اكتشاف ذلك طريقة طريفة..

هل تعرف كيف أزين قوتي؟

إنني أقف على الشرفة أدخن، وأرمي بعقب السيارة بكل ما في ذراعي من قوة حيث يسقط بين سطور الحشائش الخضراء في الحديقة.. لقد كان عقب السيارة في الأسابيع الماضية يسقط بعد السطر الرابع بقليل، أما اليوم فلقد اقترب من السطر السادس كثيراً.. فهمت من رسالتك أنك لست في حاجة لترى موت محمد علي أكبر كي تعرف ما هو الموت.. ولقد كتبت تقول إن حادثة الموت لا تحتاج إلى المقدمات المأساوية التي وصفتها حياة محمد علي

أكبر وأن الناس يموتون ببساطة أشد، ذلك الذي وقع عن الرصيف فانطلق مسدسه المحشو ومزقت الرصاصة عنقه: كان ذاهباً مع فتاة رائعة الجمال.. والذي قتلته نوبة قلبية في الطريق، مساء يوم نيساني، كان قد عقد قرانه قبل أسبوع، كل هذا صحيح يا عزيزي أحمد، كل هذا صحيح، ولكن القضية ليست هنا أبداً، إن قضية الموت ليست على الإطلاق قضية الميت، إنها قضية الباقين، المنتظرين بمرارة دورهم لكي يكونوا درساً صغيراً للعيون الحية.. إنني أريد أن أقول لك من كل ما كتبت في رسالتي الماضية أن علينا أن ننقل تفكيرنا من نقطة البدء إلى نقطة النهاية.. يجب أن ينطلق كل تفكير من نقطة الموت.. وسواء، على رأيك، مات الإنسان وهو يتملى محاسن جسد فتاة رائعة الجمال.. أم مات وهو يحدق إلى وجه حليق يخاف منه على صندوق خشبي عتيق مربوط بخيط من القنب.. فإن المشكلة تبقى مشكلة نهاية.. مشكلة انعدام أو خلود.. أو.. أو ماذا؟ أو ماذا يا عزيزي أحمد؟

على أي حال دعنا من صب الماء في كيس مثقوب.. هل تعرف ماذا حدث بعد أن أرسلت لك الرسالة الماضية؟ لقد ذهبت إلى غرفة الطبيب فوجدتهم يكتبون تقريراً عن محمد علي أكبر.. وكانوا على وشك أن يفتحوا الصندوق.. آه يا أحمد كم نحن محبوسون في

أجسادنا وعقولنا.. إننا دائماً نعطي الآخرين صفاتنا وننظر إليهم من خلال مضيق من آرائنا وتفكيرنا، نريدهم أن يكونوا «نحن» ما وسعنا ذلك.. نريد أن نحشرهم في جلودنا، أن نعطيهم عيوننا كي ينظروا بها. وأن نلبسهم ماضيها، وطريقتنا في مواجهة الحياة.. ونضعهم داخل أطر يرسمها فهمنا الحالي للزمان والمكان..

لم يكن محمد علي أكبر شيئاً مما ذكرناه.. كان أباً لثلاثة أولاد وبنتين.. لقد نسينا أن الرجل يتزوج هناك مبكراً، ثم أن محمد علي أكبر لم يكن بائع ماء، فإن الماء متوفر بكثرة في عُمان، كان بحاراً على مركب شراعي يتنقل على موانئ الجنوب والخليج.. قبل أن يستقر هنا منذ فترة طويلة..

لقد وصل محمد علي أكبر للكويت قبل أربع سنوات.. واستطاع - بعد جهد شرس لا يتصور - وقبل شهرين فقط أن يفتح شبه دكان على رصيف من أرصفة الشارع الجديد.. أما كيف كان يعيل أولاده في عُمان، فهذا ما لا نعرف عنه شيئاً.

لقد قرأت في التقرير الذي وضعه الطبيب أن المريض، قد عميت عيناه قبل موته بست ساعات، وهكذا فإن محمد علي أكبر لم يكن يحدق في وجهي ساعة مات.. كان أعمى.. وكتب الطبيب أيضاً أن عنوان أهل المريض مجهول، وهكذا فإن دفنه سيصير

بمعرفة حفاري المستشفى فقط!

قرأ الطبيب التقرير بصوت عالٍ لزملائه، كان موجزاً ويدور حول المرض فقط بتعابير فنية، وكان مركزاً إلى حد بعيد، وكان صوت الطبيب يرن بنغم حزين شاحب، وحينما انتهى من القراءة عمد إلى الصندوق يعالج خيط القنب.. عندها فكرت أن أغادر الغرفة، فالأمر لا يهمني.. لقد مات محمد علي أكبر الذي أعرفه، وهذا الذي يكتبون عنه إنسان آخر، والصندوق أيضاً صندوق آخر.. إنني أعرف يقيناً ما الذي في صندوق محمد علي أكبر، فما الذي يحشر أنفي في قضية جديدة؟

ورغم ذلك.. فإنني لم أستطع أن أقصد الباب. لقد وقفت في الركن راجفاً بعض الشيء..

وما لبث الصندوق أن انفتح، وبعثرت أصابع الطبيب ما في داخله بسرعة، ثم ألقته جانباً..

لقد نظرت بوجل إلى داخل الصندوق.. كانت مجموعة فواتير بديون الدكان الجديدة للمخازن المؤردة تملأ أنحاءه. وكانت في الطرف صورة قديمة لوجه ملتج.. وجلد ساعة قديم، وخيط من القنب، وشمعة صغيرة، وبضع «روبيات» منثورة بين الأوراق.

لقد أصبت بخيبة أمل.. أقول لك الحق.. وقبل أن أخرج من

الغرفة شاهدت ما صعقني، لقد أزاحت الممرضة فواتير محمد علي أكبر جانباً، فبرق في قاع الصندوق حلق خزفي طويل.. شعرت بالدوار وتقدمت إلى الصندوق ورفعت الحلق بأصبعي، لا أدري لماذا نظرت إلى الممرضة وقلت فجأة:

- هذا الحلق كان اشتراه لأخته سبيكة.. أنا أعرف هذا جيداً..
لقد حدقت إلي هنيهة مستغربة بعض الشيء، ثم ضحكت بعنف، وضحك الطبيب للنكتة.
أنت تعرف، لا شك، أن على الممرضين أن يجاملوا المصاب بقرحة في أمعائه خوف أن ينتكس.

أخوك

الكويت - ١٩٦٠

لؤلؤ في الطريق

صمت المذياع فجأة، وسمعت دقائق ساعة منهوكة تأتي من أقصى المدينة، ثم اندلق الصوت دفعة واحدة فدوت أغنية ماجة قطعها صوت يهنئ بحلول العام الجديد..

ولكن الغرفة بمن فيها بقيت صامتة كما كانت، كان صمتاً من ذلك الطراز الذي يحار الإنسان في تفسيره: أنصمت، يا ترى، لأننا ودعنا عاماً حافلاً بالعذاب؟ أم لأننا سوف نستقبل عاماً آخر، لا يبدو أقل عذاباً؟ أم للأميرين معاً؟

كان من الضروري أن يحرك إنسان ما الجو المخنوق، وهكذا اقترح حسن أن نخرج إلى الشرفة، حيث نتنشق هواء العام الجديد قبل أن تبتذله أنوف الآخرين. كان الظلام مخيماً بقسوة، وكان لهب أحمر في نهاية الأفق، حيث تحرق شركات النفط الغاز المتبقي عن حاجتها، كان اللهب يترنح في محاولة يائسة لإنارة الأفق كله، وكان

يتهاوى بين الفينة والأخرى حتى يغسل الأرض بذوبه، ثم ينطلق من جديد.

- إننا نربح كثيراً، كثيراً جداً، ولكن هنالك من لا يستطيع أن يشم رائحة طعام طهي جيداً.

قال حسن ذلك فيما هو يتكئ على حاجز الشرفة، بينما اقتعد الباقون حواف النوافذ الواطئة.

كنا قد عِفنا مثل هذا النوع من دروس الأخلاق، كنا نعرف كل شيء عن الناس الذين يذوبون فيما هم يفتشون عن وسيلة للعيش، وكنا نعرف، أيضاً، أدق التفاصيل عن بطولة الذين أتوا من بعيد كي يعيشوا، فماتوا من فرط ما تاقوا إلى العيش.. ولم نكن في حاجة لدرس جديد في الأخلاق، يأتي من إنسان حالم، يأكل الأفق بعيون متجهمة، ويتكئ كالشعراء على حاجز الشرفة.

إلا إن صوت حسن ما لبث أن وصل من جديد، محتوياً على شيء من التحدي:

- أعرف قصة حدثت قبل عام كامل، في مطلع العام الماضي. وكنت أنا أحد أبطالها.

وعاد إلى صمته، وبدا لنا أنه قد كف عن رغبته في التحدث، ولكنه عاود من جديد:

- يجب أن يموت الإنسان في مطلع عام، أو في نهاية عام،
فذلك أدعى لحفظ تاريخ موته من إنسان يموت في يوم من الأيام..
لقد مات صاحبي، وبطل قصتي، في مطلع العام، وهكذا فإنه من
الصعوبة بمكان أن ننسى موته، ولذلك فتحن مجبرون على أن لا
ننسى قصته أيضاً.

لقد أصبح من الواجب، الآن، أن يسأل أحدنا، ولو دون أن يرغب
في ذلك:

- وما هي القصة؟

- القصة يا سيدي غريبة حقاً.. وإن كنت أتعمد نسيانها أثناء
العام، كي لا يكذبني الناس، أو أكذب نفسي، فإنه لمن العبث أن
أنساها الآن.. ونحن في مطلع عام.. لماذا؟ أه.. إنني لا أدري على
الإطلاق.. ولكنني أشعر أنه من العبث أن أنساها أكثر مما فعلت،
ولذلك، فلا بد أن تسمعوها مني، وقد يخفف هذا عني بعض
الشيء، أيضاً..

واستدار حسن، فواجهنا وجه مظلل بمأساة متلبدة كتقاطيعه،
كان اللهب الأحمر قد ارتفع في نهاية الأفق حتى أقصاه، ثم انخفض
إلى الأرض من جديد، وقال حسن:

- لم أكن أدري أن سعد الدين سوف يلحق بي إلى هنا.. صحيح

أننا عشنا طفولتنا سوية، لكنني حصلت من الشهادات، فيما بعد، ما عجز هو عن تحصيله، ولذلك فإن إمكانية الكسب كانت متوفرة في حالتي أكثر مما هي في حالته، ولكنه رغم ذلك أتى إلى هنا، طامحاً طموحاً شديداً في أن يربح شيئاً ما؛ وكان هذا الطموح يورثه حماسة لا تهدأ.

لقد رحبت به ضيفاً في منزلي، وكنت أعنى به قدر طاقتي، ولكنني لم أكن أستطيع تقديم أي شيء يسهل له طريق وظيفة ما، لم يكن الصراع على أبواب دوائر الدولة في مصلحته أبداً، وكانت شهادة أي إنسان تعني بالنسبة له كفاً مبسوطة توشك أن تصفحه بقوة لا ترحم، وكنت على استعداد لتحمل سعد الدين أطول مدة مقدرة، ولكنني لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من أن أشرح له بين الفينة والأخرى أن الوظيفة بالنسبة له بعيدة، وأن عليه أن يعود إلى بلده حيث يمكن للمشكلة أن تحل بطريقة أو بأخرى، قلت له في مرة إن العجلة التي تدور هنا شرسة إلى حدود أسطورية، وإنها لا تهتم بالإنسان الفرد على الإطلاق، وإن الجوع بالنسبة للبذخ المائل لا يمكن أن يكون إلا منظراً مسلياً فحسب، وإن الناس هنا يلهثون راكضين وراء القرش إلى حد أنهم لا يلتفتون خلفهم كي يشاهدوا الزاحفين.. ولكن سعد الدين لم يكن يهتم من الأمر شيء، ولقد قال

لي مرة أنه لا يمكن له أن يعود بلا عمل، وبلا مال، وأنه لا يستطيع أن يتحمل على الإطلاق نظرة صديق أو عدو، يقول له، أو يهمس، أو يشير، أو لا يقول ولا يهمس ولا يشير، كيف يعود من وادي الذهب بلا ذهب؟

- يا سعد الدين..

كنت أقول له بين الفينة والأخرى:

- يا سعد الدين، غداً سوف ينتهي ما جلبته معك من مال، فكيف تريد أن تتصرف؟ هل تتوقع من أصدقائك أن يربوك في بيوتهم كأنك مدلل ضائع؟ إن صحتك لا تساعدك على العيش اعتباطاً، أنت تشكو ضعفاً مرّاً في قلبك يستلزم راحة مطلقة.. وغذاء جيداً.. وهكذا فإن جو العائلة يناسبك أكثر من انفراط جو العازب.. يجب أن تعود إذا وجدت في جيبك أجرة العودة.

ولكن سعد الدين لم يكن يستمع، كان يريد أن يبقى في المدينة الصاخبة، السائرة رغم كل شيء، يفتش، ويلف، ويدور، ويبحث عن شيء ما.

ولكن، يا أصدقائي، لن أطيل عليكم، لقد أتاني ذات يوم فقال إن ما معه من المال يوشك أن ينفد، وإنه قد وقع في الفخ حيث لا يستطيع أن يستمر أكثر، ولا أن يتراجع، وطلب مني المشورة.. ماذا

كنت أستطيع أن أقدم له سوى ثمن العودة؟ ولكنه رفض، كان يريد معجزة ما شأن كل من يأتي إلى هنا.. معجزة تملأ جيوبه بالذهب، وتمسك بيده تقوده بلطف شديد إلى داره على بسط ممدودة.. ولقد بذلت، يشهد الله، جهداً هائلاً من أجل أن أجتث من رأسه أية فكرة تدفعه للتردد.. ولقد اقتنع أخيراً.. ثم، وخوف أن يتراجع كعادته، طلبت منه أن يسير معي فوراً إلى أقرب مكتب سفر كي يرتبط نهائياً بموعد إقلاع وشيك.

لقد سرنا معاً، كما أذكر، تلك الظهيرة، كان الجو غائماً بارداً. وكان صمت سعد الدين يورثني حرجاً لا قبل لي به، وهكذا قررت أن أصمت أنا الآخر، ولكن صوت سعد الدين ما لبث أن انقض متلهفاً، وأحسست بكفه تشد ذراعي بعنف، وحين التفت إليه كان نداء مرّ يلتمع في عيونه، ويختلج برجاء أخير، وقال لي شبه متوسل: - اسمع يا حسن.. أنا أؤمن أن خلف هذه الزرقة يوجد إله ما.. ولذلك فأنا لا أظن مطلقاً أنه سوف يتخلى عني، لقد وضحت أمامي طريق جديدة.. ولا بد لي من سلوكها.

- أي طريق؟

- أنظر هناك.. أترى ذلك الجالس أمام القفص في وسط الساحة؟ أتعرف ماذا يبيع؟

ونظرت عبر الساحة، فرأيت رجلاً بانساً يجلس القرفصاء أمام
قفص صغير، ولم يكن هنالك أي زبون، ثم أن الطقس كان بارداً:
- لا أعرف!

- إنه يبيع محاراً.. هذا القفص مليء بالمحار.. إنه يجمع المحار
ويبيع كل أربع بروية واحدة.. إن الله وحده يعرف فيما إذا كانت
المحارة حبلى بلؤلؤة أم لا.. هذا أبدع «يانصيب» يمكن للواحد منا
أن يشاهده عمره كله.

- وماذا في ذلك؟

- لابد أن أجرب حظي.

- أي حظ؟

- الحظ المدفون تحت ركاب عذاب عشرة أعوام، سوف أشتري
محاراً بكل ما معي، ولا بد من أن اجد لؤلؤة.

إيه! لقد فقد سعد الدين كل توازنه، العذاب الطويل الذي أمض
كل خلايا جسده، المجهود اليائس الذي كان يبذله في سبيل أن
يعيش، كل هذا جعله يعتقد أن النجاح يكمن في خدعة ما.. في
طريق مبطن تحت مظهر ساذج، موجود على أي حال هنا أو هناك.
ولهذا كله، كان يصر على أن الثروة والراحة وكل ما طمح له يكمن
في بطن محارة مجهولة..

أتريدون الحقيقة؟ لقد كانت تجربة رائعة بالنسبة لي، أنا،
أيضاً؟ من يدري؟ ربما وجدنا لؤلؤة! أو ربما كانت لؤلؤة كبيرة
مدورة، مزرقّة بهدير محيط مجهول متباعد.. أليس من الممكن أن
يجد سعد الدين لؤلؤة وأن يستمر في النضال هنا فترة أطول، أو أن
يعود إلى منزله وفي جيبه شيء ما؟

وهكذا توجهنا إلى الرجل المقرّص أمام سله المبلول.. ولكنني
رغم كل شيء كنت أخاف أن يسحق سعد الدين فشل آخر، فقامت
بمحاولة أخيرة، ولكنها مستسلمة سلفاً:

- سعد الدين! هل تعرف أن فرصتك واحدة من ألف؟ هل
تعرف أن بين كل ألف محارة توجد محارة واحدة حبلى بلؤلؤة، وقد
يكون الجنين الثمين صغيراً كحبة عدس؟
فقال:

- هناك ملايين من المحارات في قاع البحر، يا حسن، أتستطيع
أن تؤكد أن صاحبنا الغواص لم يحمل المحارات المحظوظة، ويترك
كل المحارات الفارغة هناك؟

وجلسنا أمام الرجل، ودفع له سعد الدين كل ما في جيبه
واختار كوماً صغيراً من كومه، وبدا لي في تلك اللحظة أن وجود
لؤلؤة في هذا الكوم من القاذورات المبتلة، طموح لا مبرر له.

وبدأت سكين الرجل تعمل بالمحارات.. كان يدخلها ببراعة فائقة في رأس المحارة، حيث شققت الشمس نافذة صغيرة تكفي لرأس النصل، ثم يرفعها بحركة دائرية فتنتفتح المحارة عن كتلة لزجة شبيهة باللحم الطري، كأنها أحشاء حيوان صغير، وتعمل السكين تنقيباً في قطعة اللحم، ثم تلتقى المحارة العافر في سل النفائات، وترتسم الخيبة في عيني سعد الدين، ثم تمحي تحت إصرار أمل جديد، وتعود السكين تعمل، من جديد، أيضاً.

وبدأ كوم المحارات يتصاغر شيئاً فشيئاً، ثم غمامة مجهولة كانت تهيمن على الموقف، كانت عيون سعد الدين تتشبث لاهثة بالسكين المعقوفة وهي تفتح المحارات الفارغة، وكان الرجل يقوم بعمله بكل بساطة، وكنت قد بدأت أتابع سعد الدين، وأكاد أشاهد الغصة تمتص صموده بألف خرطوم هلامي.

أيها الأصدقاء.. ما تم، بعد، كان غريباً إلى حدود مذهلة، لقد تبقت، ثمّة، محارة واحدة لا غير، وكان الإجهاد قد وضع على وجه سعد الدين، فأخذت أراقبه وجلاً، مغفلاً مراقبة أنامل الرجل وهي تفك غموض المحارة.. لقد بدا شكل سعد الدين مخيفاً.. شكل إنسان على وشك السقوط في هوة، وكان يبدو أنه قد تعلق نهائياً بهذه المحارة، وأن كل المستقبل لا بد وأن يكون هناك. وفجأة،

التمع في العينين الملهوفتين بريق راعب، وخيل إلي أن الحياة قد
تمثلت لمعاناً في العينين العميقتين، لمعاناً غريباً فحسب، كان
يحدق في المحارة، وكنت أحدق في وجهه، ثم، وقبل أن أدرك شيئاً،
سقط سعد الدين على وجهه في الوحل، وعندما حاولت رفعه،
وجدته ميتاً!



كان الظلام ما زال يخيم بقسوة، واللهب الأحمر يرتفع بقوة
نحو الأفق ثم يهمد فجأة، ومرت لحظات من الصمت الميت، لم
يكن أحد منا يرغب في التعليق أو الحديث، ولم يكن يهمننا ساعتها
أن نناقش حسن فيما إذا كان واهماً أو مبالغاً أو كاذباً، ولكننا لم
نكن نستطيع أن نخلع أنفسنا عن القصة. ووصل صوت حسن مرة
أخرى، راجفاً متوتراً:

- كان المسكين يشكو ضعفاً في القلب، ولم يستطع أن
يتحمل، ولكن يتحمل ماذا؟ صدقوني أنني لا أعرف أيها الأخوة لماذا
مات سعد الدين؟ هل كانت، ثمة، لؤلؤة داخل تلك المحارة الأخيرة
الملعونة فمات فرحاً، أم كانت فارغة كأخواتها العاقرات، فمات

غمماً؟ لقد مضى كل شيء بسرعة، ودون أن أفطن لهذا الموضوع،
لقد أنساني الجسد المطروح في الوحل كل شيء عن المحار
واللؤلؤ.. وعندما انتهينا من نقل الميت، كان صاحب المحار قد
اختفى، بطبيعة الحال.

الكويت - ١٩٥٨

الرجل الذي لم يمت

ما كاد السيد علي يطمئن على مقعده في سيارة الركاب، حتى لمح وجه السيدة زينب تجلس في الجانب الآخر من السيارة، وراوده شعور بالقلق وبالحزي في آن واحد، حتى إنه اعتقد - لمدى لحظة واحدة - أنه لن يحرك ساكناً إذا ما التفتت السيدة زينب تجاهه، ورائته، ثم بصقت في وجهه.. وحاول أن يرفع الجريدة أمام وجهه ستاراً، ولكنه فضل بعد قليل أن يستدير نحو النافذة.. ويحرق في الطريق!.

في يوم ما، مضى قبل عشر سنوات، كان يشعر السيد علي إذ يرى السيدة زينب بسعادة طاغية.. سعادة من ذلك الطراز الذي يشعر به ابن المدينة عندما يعثر على كوب ماء نظيف في مقهى قرية مجهولة، ورغم أن شيئاً لم يكن يجبر السيد علي على احترام السيدة زينب، إلا إنه كان يشعر باضطرابه لكي يفعل، بل كان يأمل

في يوم يستطيع فيه أن يخطب ابنتها إلى ولده.. رغم بعد الشقة بينه، هو صاحب الأرض، وهي الفلاحة البسيطة التي تستأجر عشر دونمات من أرضه..

السيدة زينب وزوجها، هكذا قال السيد علي يحدث نفسه، كانا من أنشط الفلاحين الذين رآهم في حياته، ولقد استطاعا بفضل هذا النشاط أن يرسلا ابنتهما إلى المدينة كي تتعلم، رغم أنها كانت قوية.. وكان باستطاعتها أن تمد يد العون إلى الأرض، وكانت دار السيدة زينب نظيفة إلى حدود عجيبة كانت تحيره، ففي خارج الباب كان الذباب يتكاثر كأنه غيمة سوداء، وفي داخل الدار، كان اكتشاف ذبابة واحدة يستلزم جهداً مضمناً. ولطالما حيرته هذه الظاهرة..

كان للسيدة زينب ولد أيضاً، ولقد كان قوياً ك ثلاثة فلاحين، لم يكن يرفع رأسه عن الأرض، إذ يعمل فيها، حتى ولو مر السيد علي نفسه، وحاشيته من محاسبين ومحاسيب.. ولقد شعر السيد علي مرة أن القوم لا يحترمونه كفاية.. ففي ذات يوم، مر من أمام بيت السيدة زينب، فسمع صوتها من خلفه يدوي بلهجة غريبة:

- سمعنا أنك تريد بيع الأرض..

واستدار السيد علي فرأها تتكئ على سياج من الخشب العتيق،

ورأى في عينيها نظرة لم يعتدها منها..

- قررت أن أعود إلى بلدي.. أنت تعرفين أنني لست من هنا،

ولقد آن لي أن أعود. ها... كيف حال العزيزة ليلي؟

ورغم ذلك، فإن النظرة الغريبة لم تبرح عيني السيدة زينب،

وسمعتها تقول بنفس تلك اللهجة، وكأنها لم تسمع قط لما قال:

- وسمعنا أيضاً أن عرضاً يهودياً قدم إليك.

شعر السيد علي ساعته بالقلق بسبب تلك النظرة الغريبة،

ورأى أن عليه أن يتقدم خطوة نحوها كي يكسب ودها:

- إذا استطعت أن أجر ذلك اليهودي إلى أن يضيف نصف

المبلغ المعروض الآن.. فسوف تكون صفقة موفقة..

ولمحاها تنتصب في وجهه، فعاجل يتابع:

- هذه الصفقة هائلة! اسمعي، لو بعت الأرض بمبلغ صغير

لكان عليكم جميعاً أن تغادروا الأرض.. وأن تفتشوا عن مكان آخر..

لأنني لست مستعداً أن أفقد نصف ثمن الأرض من أجل مساعدتكم..

أليس صحيحاً؟

وبقيت عيون السيدة زينب مفتوحة دون أن ترد على التساؤل..

ورفعت ذراعيها وعقدتهما على صدرها.. ووجد أن عليه شرح فكرته

بسرعة:

- أما إذا بعثها بمبلغ جيد.. فسوف يتيسر لي أن أعطي كل فلاح من المستأجرين مبلغاً من المال يستطيع أن يقيم أودعه.. هذا أفضل من أن يذهب للعمل حمالاً في الميناء.. أأست على صواب؟ وترقب الجواب، ولكن السيدة زينب قالت بهدوء وكأنها مرة أخرى لم تستمع إلى أي كلمة لفظها:

- يجب أن لا تبيع الأرض لليهودي يا سيد علي..

- ولكنني إذا لم أبعها لن تحصلوا علي أي قرش يساعدكم فيما بعد.. أليس كذلك؟

- يجب أن لا تبيع الأرض لليهودي يا سيد علي..

عرف لحظتها أن عليه أن يتخذ موقفاً مغايراً، واكتشف أن التساهل الذي كان يعامل به فلاحيه لم يكن في محله، وبذل جهداً كبيراً كي ينصب قامته في وجهها.. وكي يصيح بصوته الراجف:

- علي أي حال.. هذا عملي أنا!!!

واستدار.. ثم عاد أدراجه مفكراً.. هذه السيدة زينب.. شيء غريب فعلاً، إنها لا تفكر بعقلها. إنها لا تملك قرشاً وعلى رأي المثل المشهور «من لا يملك قرشاً فهو لا يساوي قرشاً..» ورغم ذلك يبدو أنها سوف ترفض هذه الفرصة الكبيرة... بأي عقل يفكر أولئك المجانين؟ إنه يعرف صدور الفلاحين.. لو باع الأرض لما زوجت

ابنتها لابنه مطلقاً، بل لما سمحت لنفسها أن تستقبله في دارها..
وساءه أن تصل علاقته بالسيدة زينب إلى هذا الحد... ولكنه عاد
يفكر بالمبلغ المعروض.. من يدري.. فقد يستطيع أن يكسب رضي
السيدة زينب برزمة صغيرة منه!

آوى إلى فراشه ذلك المساء مبكراً ولكنه صبح بعد قليل على
وقع خطوات ثقيلة تحت شرفة غرفته الخشبية، وكاد أن يحسب
هذا الصوت وهماً من أوهام النائم.. ولكنه سمع، بوضوح، هتاف
رجل من تحت الشرفة:

- يا سيد علي..

وقبل أن يصل إلى باب الشرفة ويفتحه، كان الهاتف قد صاح
بصوت ثابت:

- إذا بعث الأرض فسوف يقتلك الفلاحون!

ولم يستطع السيد علي أن يميز عندما وصل لحافة الشرفة، غير
شبح باهت يختفي في زرع الحقل.. فعاد إلى سريره مستشعراً
خطورة غامضة..

عرف يومها السيد علي أن شقياً من أشقياء الفلاحين يريد أن
يلعب لعبة ندر عليه مكسباً، أو - هكذا فكر السيد علي أيضاً - ربما
كان عضواً في واحدة من تلك اللجان التي تشكلت لمراقبة باعة

الأراضي لليهود.. على أي حال.. سوف يكون معه دفعة من المال
تسكت أي لسان متحمس..

ثم باع الأرض.. وباعها لليهودي بالذات الذي أضاف نصف
المبلغ إلى المبلغ المعروض.. وفاز بالصفقة، ولكن القلق ما لبث أن
عاوده وهو في طريق عودته إلى الدار.. إذ سمع صوت السيدة
زينب بلهجته الغريبة، يهتف به إذ مر من جانب بيتها:

- سمعنا أنك بعت الأرض..

أجاب السيد علي مرتجفاً بعض الشيء:

- نعم بعتها.. أريد أن أعود لبلدي.. أنت تعلمين أنني لست
من هنا.. لقد أصبحت عجوزاً.. ها.. أليس كذلك؟

ولكن وجه السيدة زينب لم يتحرك، وسمعتها تقول ببرود

غريب:

- مبروك!.

واستدارت السيدة زينب عائدة إلى بيتها.. وبقي السيد علي
واقفاً يحس رعباً شديداً.. فلقد خاف أن يكون ضحية جديدة
للمتحمسين الذين لا يسمحون للإنسان بأن يفتش عن طريقة
للكسب، ولكنه سرعان ما طرد الفكرة، فلقد استطاع مسبقاً أن
يكسب رضى جميع فلاحيه بالمبلغ الذي وعد أن يعطيه لكل واحد

منهم.. ثم أنه لن يبقى طويلاً في تلك الأرض الملعونة، التي تخطف القرش من قبضة الرجل المطبق عليه بإحكام شديد.

في ذلك المساء، سمع السيد علي بوضوح صوت خطوات ثقيلة تحت الشرفة، وقبل أن يتحرك من سريره سمع الهاتف نفسه يصيح بهدوء:

- يا سيد علي..

وضحك السيد علي بينه وبين نفسه، وقال إن ذلك المتحمس يرغب في وضع اتفاقية صغيرة.. وفي اللحظة التي فتح فيها الباب دوت أربع طلقات نارية، وخيل إليه أنه يسمع ثرثرة تحت شرفته وجلبة مبهمة، وأحس بالدم الحار يسيل على عنقه.. وحاول أن يتمسك بالباب ولكنه أخطأه وسقط..

إلا إن السيد علي لم يمت.. بل استطاع بعد أسبوع واحد أن يزور السيدة زينب، كانت تجلس أمام بابها تحوك ثوباً، ورفعت بصرها إذ سلم بصوته الراجف وقالت هادئة:

- سمعنا عن الحادث..

ثم هزت رأسها كأنها تواسيه. ورآها تنظر إلى الجرح الطويل تشده الضمادات وتخفيه (الحطة) البيضاء، ويمتد من صدغه إلى عنقه، وعادت تحوك ثوبها.

- أتيت كي أعطيكم مبلغاً بسيطاً تعيشون من ورائه إذا ما أخرجكم صاحب الأرض الجديد.

ولم يرتفع رأس السيدة زينب عن الثوب. وأحس السيد علي بأن وجوده غير مرغوب فيه، فترك رزمة النقود على الكرسي العتيق، وحاول أن يراقب وجه السيدة زينب، ولكنها لم تتحرك. وهبت نسمة ريح مفاجئة فتطايرت أوراق النقد.. وعدا الخادم يجمعها ووجه السيدة زينب لم يرتفع عن ثوبها.. كان وجهها صامتاً قاسياً، وخيل إليه يومها أنها توشك أن تنفجر ببكاء مرير.. ولكنه لم يقم من مكانه، واستغرب أن يكون للأرض تلك القيمة التي تجعل وجه الإنسان يتهيكل بالألم واللوعة إن هو أرغم على تركها.. ولكن على أي حال ساءه أن تصل علاقة التوتر بينه وبين السيدة زينب إلى ذلك الحد..

وفجأة.. أحس بالجرح الممتد من صدغه إلى عنقه يؤلمه بعنف غريب.. ووقع بصره على أوراق النقد تلعب بها الريح ويجري وراءها الخادم.. فأحس بخجل لا معنى له.. ورفع يده يتحسس الضمادات فوق الجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه.

لم تطل إقامة السيد علي طويلاً بعد ذلك، إذ عاد إلى بلده فور شفائه.. ولم يعد يسمع شيئاً عن مستأجري أرضه، وها هو ذا الآن

يشاهد السيدة زينب في السيارة تجلس هادئة كأنها ما زالت تحوك ثوباً أمام بابها في مرج ابن عامر، صحيح أن بيع الأراضي كان سبباً من أسباب نكبة هؤلاء، ولكنه لم يكن يتصور أن ذلك سوف يحدث لمجرد أنه عقد صفقة موفقة مع يهودي.. ولكن ذلك حدث على أي حال.. ويبدو أن لعنة الأرض سوف تلاحقه.. إلى الأبد.. أحس إحساساً واضحاً هذه المرة أن وجوده في السيارة أيضاً غير مرغوب فيه، وانتظر أن تقف السيارة.. فقام يسير نحو بابها.. وعرف أن السيدة زينب لمحتة فتعمد ألا يلتفت.. ولكنه دون أن يشعر، رفع كفه الكبيرة كي يستر الجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه.



أحست السيدة زينب عندما شاهدت ظهر السيد علي، وطرف الجرح المحفور في صدغه وعنقه أن عليها أن تجري خلفه، وتدق بأصابعها على كتفه، حتى إذا ما التفت إليها بصقت في وجهه. ولكنها هدأت من ثورتها.. وذكرها مظهر السيد علي بأيام بعيدة.

لقد كان السيد علي إنساناً جيداً في مجمله - هكذا قالت

السيدة زينب تحدث نفسها - لولا تعلقه الفطيع بالمال... لقد كان يقول الفلاحون عنه إنه على استعداد لأن يبيع أمه إذا عرض أحدهم مبلغاً جيداً من المال... ولقد طالما سمعوه يقول المثل الوحيد الذي يحفظه: « إذا كنت لا تملك قرشاً فأنت لا تساوي قرشاً». ولقد كان الفلاحون يقتنعون بتلك الحكمة إلى اليوم الذي قال فيه فلاح يدعى «أبو أحمد» يرد على قول السيد علي «لقد وجدوا عشرات الأبطال من الذهب في قبر فرعون.. فكم يساوي فرعون؟» وسرعان ما حفظ الفلاحون كلمة أبي أحمد.. وصارت سلاحاً يشهرونه في وجه السيد علي كلما حاول أن يحاضرهم حكمته حول القرش... على أي حال فلقد كانت معاملة السيد علي للمستأجرين وللضامنين وللمشاركين جيدة في مجملها، بل، لقد طمعت في يوم ما أن تزوج ابنتها ليلي من ابنه أحمد، وفي الحقيقة أنها ما أرسلتها للمدينة إلا لكي تتعلم وتصبح ملائمة لابن السيد علي.

ولكن الأمور تجري على نحو يغير طموح الناس.. فلقد وصلت رسالة من ابنتها ليلي من مدرستها في حيفا تقول فيها إن السيد علي يفاوض يهودياً على بيع الأرض.. وتطلب من أمها أن تستفسر لها عن الحقيقة.

لقد انزعجت السيدة زينب حتماً من الخبر.. واعتبرته إهانة

لأمانيتها ولأفكارها عن السيد علي.. وعندما قابلته في اليوم التالي، كانت خائفة بعض الشيء.. فلم تكن تملك إلا أن تكرر قولها له:
- يجب أن لا تبيع الأرض يا سيد علي..

وعندما استدار السيد علي مغضباً، أحست بارتياح غريب، وتنفست الصعداء بعد ذلك الجهد الذي بذلته في سبيل أن تقف موقفها ذاك..

وفي نفس المساء.. وصلت ليلي من حيفا.. وسرها أن تسمع من أمها كيف استطاعت أن تغضب السيد علي، ولكنها أصرت يومها أن يقوم حمدان - أخوها - بتهديد السيد علي بالقتل إن هو حاول بيع الأرض.. وقالت كلاماً كثيراً.. لم تفهمه السيدة زينب ولكنها صدقته عندما رأت رأس زوجها ورأس ولدها ينوسان موافقين على كلام ابنتها.

ولكن الذي حدث - أيضاً - كان شيئاً مغايراً لما رتبته السيدة زينب.. فلقد كان السيد علي عائداً إلى داره في اليوم التالي عندما تيقنت أنه باع الأرض.. ووافق على كلامها مرتجفاً.. وعندها قالت له ببرود شديد: «مبروك»!

كانت تعرف أي رعب دوى في صدره.. ففي كل يوم كانت تقع حادثة من هذا القبيل.. رجل يبيع شيئاً لليهود فيؤذبه الوطنيون

بالسوط أو الرصاص.. ورغم أن السيدة زينب كانت تعرف أن السيد علي لا يفهم الفلاحين جيداً، إلا إنه لا يمكن أن يكون غيباً إلى الحد الذي لا يفهم فيه الأرض!

وفي المساء.. حمل حمدان بندقيته العتيقة، وسار مع أبيه ومع أخته صوب دار السيد علي..

لم تكن تعتقد السيدة زينب أن حمدان سوف يقتل السيد علي. كانت تعتقد أنه يريد تهديده فقط، لذلك فلقد فوجئت عندما سمعت أصوات طلقات نارية.. وكان عليها أن تصبر طويلاً قبل أن ترى زوجها يدفع الباب مرتجفاً، وهو يصيح بصوت مبحوح:

- لقد مات..

وخفق قلبها بخوف رهيب.. ترى أي شيطان دفعها لكي تسأل:

- مَنْ؟.. السيد علي؟..

وأي إله جعل جواب زوجها المبحوح:

- لا.. حمدان!

وأحست بدوار وبصمت مطبق من حولها كأنها لم تسمع كلاماً في حياتها قط.. كأن أذنيها ترفضان سماع شيء على الإطلاق.. وكمن يحلم سمعت صوت زوجها يأتي من خارج دنيها:

- انفجرت الرصاصة الأخيرة فمزقت صدره ووجهه.. لقد مات..

ولكن السيدة زينب لم تتحرك.. ورأت زوجها كالذي به مس جنون يجمع أدوات الحفر.. حفر قبر ولدها.. ورغم ذلك فلقد بقيت خارج الدنيا.. كأنها مجرد لوحة معلقة على جدار كبير، تنظر دون أن تفهم... ثم رأت جثة حمدان مغطاة بطبقة جافة من الدم.. وفوق رأسه ليلى تنوح بصمت راجف.. ولكنها لم تتحرك. ورأت الجثة تحمل على كتف زوجها إلى خارج الدار، وعندما عاد زوجها وفي عيونه دموع رجل لم يبك قط، فقط عندما عاد زوجها مغبراً من تراب القبر الجديد.. فقط عند هذا، وقعت على الأرض... كأن يداً جبارة قطعت خيط اللوحة المعلقة على الجدار الكبير.. فسقطت.

ولكن السيد علي لم يمت.. وقدر لها أن تراه، مرة أخرى يعطيها مبلغاً كي تعيش به إذا ما غادرت الأرض.. وتصورت لحظتها أنه إنما يعطيها ثمن ابنها.. وهمت أن تبكي ولكنها خافت أن يكشف أمرها.. ولأول مرة عرفت كم هي قاسية ومؤلمة اللحظة التي يريد أن يبكي فيها الإنسان، رغم ذلك، فهو لا يستطيع.. لقد شاهدت النقود تطير بفعل الريح.. ولكنها لم تتحرك.. وبدت لها بوضوح حقارة المثل الذي يقول «من لا يملك قرشاً لا يساوي قرشاً»، وودت

لو ينهض السيد علي كي تنفجر ببكاء مر طويل.. ولكن السيد علي لم يتحرك.. وتجلدت طويلاً.. إلى اللحظة التي غادر فيها السيد علي متكئاً على ذراع خادمه..



وها هي ذي تراه من جديد يهبط السيارة بجرح طويل محفور في صدغه وعنقه.. ليست تدري لماذا لم تبرح ذهنها صورة السيد علي وهو يحاول أن يخفي الجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه.. واعتقدت، وهي جالسة تفكر، أن السيد علي يخجل من هذا الجرح، وأنه يراوده شعور بالخزي كلما وقف أمام المرأة كي يحلق ذقنه، إلى حد يود فيه لو يبصق على صورة وجهه المطبوعة في المرأة.

ولأول مرة، مذ غادرت أرضها، أحست بشيء من الراحة لأن السيد علي لم يمت.. وأنه ما زال حياً، يحدق كل صباح بالجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه، ويتذكر الأرض التي باعها..

وقالت في ذات نفسها وهي تنظر إلى الطريق:

- سوف يتيسر للسيد علي أن يرانا نعود إلى الأرض التي باعها..

سوف يشعر يومها - وهو يحدق بالجرح الطويل المحفور في
صدغه وعنقه - أن هنالك شيئاً أقسى من الموت..
أقسى بكثير..

الكويت - ١٩٥٨

العطش

آه لو يستطيع الرجل الكئيب أن يذهب! إلى أين؟ هذا لا يهم.. فقط لو يستطيع أن يذهب.. دار في مربع الجدران دون غاية، ثم سقط فوق السرير.. النغم الباكي من الأسطوانة لم يعد يصل إلى صدره.. إنه يلمس جلده البارد ثم يرتد ليلتصق بالجدار.. كيف استطاع أن يعتقد - في يوم مضى - أن النغم هو كل شيء؟ كيف؟

في يوم مضى!. يبدو أن الماضي كان لإنسان آخر.. أما هو، آه! إنه يحمل هذه الجدران الأربعة على كتفيه منذ ولد.. يحملها أينما ذهب.. حتى حينما يضحك فلسانه الخشن يجري فوق الجدار.. منذ متى وهو يحمل هذه الجدران؟ ليس يدري، ربما قبل أن يولد.. ربما الآن فقط.. نهض عن السرير وأدار مفتاح الراديو.. الصوت يدوي الآن في الغرفة زاعقاً كمليون بومة كئيبة. ورغم ذلك فإنه ما زال يلمس جلده، ثم يرتد إلى الجدار..

أذكر أيها الكتيب يوم سمعت هذه القطعة لأول مرة؟ كيف حملت إليك الشعور بأنك ملقى في دوامة من تدفق لا تريد أن تغادره، ماذا حدث لك؟ هل تذكر كيف كان البوق الفاجع يهز عروقتك والطبل يدوي في حلقك؟ لا تنهض! القطعة نفسها... نفس التوزيع.. نفس الفرقة.. بل نفس شركة التسجيل.. هل تريد أن تقول إنها تغيرت؟ الكذبة لا تنفع..

عشرة فناجين قهوة بلا سكر... علبة سجائر كاملة.. ألف مرة خرجت إلى الشرفة ثم عدت.. هل تذكر كم مرة دورت إبرة الراديو؟ كم مرة غيرت الأسطوانة؟ كم مرة حاولت أن تشرب جرعة من الخمر الذي تخبئه في خزانة الملابس؟ لماذا لا تجلس على طرف السرير وتضع رأسك بين كفيك، وتعتزف بهدوء: «أنا غريب»؟

صوت البوق شيء فاجع! ورغم ذلك فإنه ليس هنا.. كأن صدرك صفائح قصدير يضربها الصوت ويرتد مرثاً كشيء نافه إلى الجدار... كأنهم يعزفون على سطح بناء شامخ لأطفال الملائكة المشغولين بنتف ريش أجنحة بعضهم بعضاً.. قم.. أخرس عواء البوق، واطفئ الضوء، واغرز رأسك في أحلام وسادتك.. لا تستطيع؟ أنتعرف لماذا؟ منذ دفع إليك صديق مجذور الوجه كتاباً لأول مرة في عمرك بدأت قصتك.. كنت مراهقاً.. لم يشغل بالك بطل القصة يومها بل

مؤلفها.. ورغبت في أن تكون مثله. شيء جميل.. ولكن كيف؟ إنك إنسان لا يجرؤ على مواجهة نفسه.. ومثل لك فشلك أن ما يلزمك هو التجربة. لماذا افتعلت الأشياء؟ لماذا لم تجلس - يومها - بهدوء، وتعتري بأنك فشلت؟

أهلك يحدون حريتك؟ اتركهم.. أصدقاؤك يضحكون؟ اهجرهم.. عملك لا يعطيك التجربة؟ استقل! ثم ماذا؟ أنت الآن تحمل جدرانك الأربعة وتمشي كإنسان من جبس.. لماذا لم تعترف من الأساس بأن الكذبة الكبيرة كانت من صنع فشلك؟ أنت حسبت أنك لو تصرفت بصورة مغايرة، لكنك نتاجاً مغايراً! أية كذبة!.. الق بعقب السيجارة، البيت لن يحترق.. حتى لو احترق فسيبقى فوق رأسك..

أيها الرجل الكئيب.. هناك ما نسيته.. لن أقول لك ما هو. تجول في الغرفة كقطعة محبوسة في خزانة طعام فارغة.. أتعرف ماذا نسيته؟ أن تعيش حياتك أنت، لا حياة أخرى.

لماذا قلبت الأسطوانة، أنت لا تعرف كيف تسمع.. ألف عجلة سوداء تدور في أذنك من الداخل.. اشعل لفافة أخرى.

أنت تعيش وحيداً الآن.. أليس هذا الذي أردته؟ هل كان من الضروري أن ينقطع الماء عن منزلك لتكتشف أنك وحيد؟ أمس، قام الرجل الكئيب ليشرب.. وحينما فتح الصنوبر خرخر

صوتٌ عميق، ولم تنزل أية قطرة.. كان العطش يمسك بأصابعه الغليظة الجافة حلقه.. كيف يشرب؟ شيء سخيف.. ولكنه يريد أن يشرب.. ثم صحا في منتصف الليل أشد عطشاً.. لو كان في الغرفة إنسان آخر لقال له متأففا: « أريد أن أشرب». ليس من المهم أن تشرب. المهم أن تجد من تقول له أنك تريد أن تشرب.. أنك ظامئ.. أكان من الضروري أن يحدث هذا لتكتشف أنك إنسان ملقى في الفراغ؟

أنا أعرفك! أنت إنسان يكره أن يندم.. ولذلك سوف لن تقول لأحد أنك تحمل الجدران الكثيبة معك.. غداً سوف تصحو وطعم المرارة يعلك لسانك.. لن يقول لك أحد كيف نمت.. سوف تتناول فطورك في مطعم حقير.. وسوف تركض باحثاً عن إنسان تجلس معه.. أي إنسان تجلس معه، لتسمع صوتاً موجهاً إليك عبر الجدران؟ أنا أعرفك. كبرياؤك القبيحة تلجم لسانك.. سوف يسألك هل أنت سعيد؟ وسوف تقول: أنا أحب الوحدة.

أيها الإنسان الكتيب.. لا تتعب نفسك.. لا تبحث عن أسطوانة أخرى. كل الأسطوانات من عجيب، هل خطر في بالك لحظة أن كتبك الكثيرة تتكى على بعضها كبنات رصيف بارد؟.. غداً، أيها الإنسان الكتيب، لن تكون سعيداً، الإنسان الذي سوف

تجلس معه لن تسمع كلمة من كلماته.. أنت تبحث عنه فقط كي
تقول له، كأنك تحكي شيئاً عابراً:
- أمس انقطع الماء عن منزلي..

بيروت - ١٩٦١

المجنون

أنا أقرضُ وراء المنعطف بخمس خطوات واسعة، أضع كوعِي على ركبتِي، وأركز ذقني على راحتِي، وأغمض عيني قليلاً، وأطلع إلى الناس، ولكنهم لا يرونني.

أقرض هنا منذ لم أعد كلباً صغيراً، هذا المكان لي، ليس من إنسان يقرض فيه سواي، إن أحداً لم يجده حتى الآن.. آتي إليه في الصباح، وأظل مقرضاً حتى تسقط الشمس وراء سطح بيت الولد الأشقر.. يأتي الولد الأشقر، يمشي ببطء على رؤوس أصابعه، أراه من طرف عيني، لا أدعه يراني أبداً، يصل إلى المنعطف، يضع الطعام، ويركض إلى درج بيته. يفتح الباب ويبقى ينظر إليّ حتى أقوم فأخذ الأكل وأرجع إلى مكاني مسرعاً فيصيح:

- متى ستصبح كلباً مرة أخرى؟

هذا المكان لي، أنا لا أرد عليه... أنا لا أنام إلا بعد أن يؤذن

العصر، أنا أعرف المؤذن ولكنني أحرص على أن لا يعرفني، أنا أنام في العصر لأن الناس لا ينامون وقت العصر، لذلك فأنا الوحيد الذي ينام وقتذاك في كل العالم.. حينما أنام أغمض عيني، وأسند رأسي إلى الحائط، وأحلم أحلاماً رائعة، مرة حلمت أن بقرة قدمت إلي قطعة جبن لأنني كنت جائعاً، وحينما أكلتها شعرت أن طعمها يشبه طعم الحليب، وأخذت البقرة تضحك ثم هربت وتركت ذيلها ملقى على كتفي... مرة حلمت أنني أقف أمام قطعة صغيرة حلوة.. تطلعت إلي القطعة فخافت، ثم أخذت تركض وتبكي.. لقد كنت أنا الآخر خائفاً ثم صحت فجأة فإذا بي قد غادرت مكاني فعدت مسرعاً إليه، وكان الأطفال يقفون إلى جانب المنعطف ويصيحون بأصوات رفيعة:

- متى ستصبح كلباً؟

ولكنني لم أهتم بهم، كان الوقت عصراً لذلك عدت إلى النوم ولم أسمع صياحهم.. يوجد كلب يمر دائماً قبل العصر، في عينيه يقعد دائماً رجل صغير عيونه واسعة وفمه مفتوح، الكلب لا يعرف شيئاً.. لو عرف متى أقوم لأتى وأقعى في مكاني.. آه لو أتى يوماً في الليل ولم يجدني، فسيقع في مكاني، وعند الظهر سوف يأكل الولد الأشقر إذا حضر له الطعام.. إذا أتى الكلب، إذا أقعى في

مكاني، فسألني على رأسه حجراً صغيراً.. لن ألقي على رأسه حجراً كبيراً، لاني أريده أن يبقى كلباً... أنا لا أحب الكلاب، أمي تحب الكلاب.. لقد تزوجت كلباً ذات يوم، ثم طلقها لأنه ذهب مع كلبة أخرى..

كلهم كانوا كلاباً.. كلاباً ذات شعور سوداء، وعيون واسعة، وأنا - أيضاً - كنت كلباً صغيراً، قبل أن تنبت لحيتي، الكلاب لا تنبت لحاها..

كلباً صغيراً.. كيف كانت الدنيا يومها! كنت أحمل حقيبة صغيرة وأذهب إلى المدرسة، وعندما أعود كانت أمي تربت على ظهري وتبتسم.. وكان أبي يبتسم.. كلباً صغيراً، والحياة جميلة.. كنت أحب الجميع.. وكان عندنا حديقة، وكنت أحبها.. كنت أكل كل يوم مرات كثيرة، وكانت أمي تحبني كل يوم.. وكان أبي يحبني أيضاً.

الولد الأشقر، إنه ليس كلباً، مرة قال لي:

- هل كنت كلباً أم أنك كنت قطة؟

ثم ركض قبل أن أقول له أنني كنت كلباً.. ولم أكن قطة أبداً.. أنا أحب القطط.. لا يوجد كلب يحب القطط.. أنا متأكد أنني كنت كلباً.. إنه يحسب أنني كنت قطة! كلا أنا لم أكن قطة في يوم من الأيام، ربما أختي كانت قطة.. أما أنا فلم أكن أبداً.. نعم.. هذا

مؤكد.. أختي كانت قطة.. والكلاب لا تحب القطط.. كل الكلاب لا تحب كل القطط.

كان في دارنا قطة صغيرة، وكان الجميع يحبونها.. وأنا أيضاً كنت أحبها أحياناً، رغم أنني كنت كلباً.. وكانت القطة مرة واقفة على بركة بيتنا.. بركة كبيرة كأنها بحر كبير.. ولكن الكلاب لا تحب القطط.. حتى القطط الصغيرة الحلوة، اقترب الكلب الصغير على رؤوس أصابعه، القطة لم تره، ثم وصل إليها دون أن تحسّ. وسمعتها تقول: «كغ.. غ.. غ..» وتنظر إلى الماء.. دفعها بيديه فسقطت في البركة.. القطط لا تعرف السباحة كالكلاب.. فأخذت تصيح، وتنادي، ولكن الكلب لم يهرب.. لأنه لا يحب القطط.

لقد خاف الكلب قليلاً.. نعم، لقد خاف، ولكن القطة لم تعرف أنه خاف، وبقيت تصيح وتزعق..

أمي كانت تحب القطة.. تحبها كثيراً.. لقد أنت راكضة، وكانت القطة تخرج فقاقيع ماء صغيرة إلى فوق.. أخرجت أمي القطة ونظرت إليها ثم أخذت تبكي بصوت عالٍ وتمزق ملابسها وتدور حول نفسها.. كنت يومها كلباً صغيراً ولكني لم أخف كثيراً.. نظرت إليّ أمي، ثم ضربتني على رأسي فركضت إلى الباب.. لماذا تحب أمي القطط؟ لم تتكلم معي أبداً بعد ذلك اليوم،

ولم تعد تربت على ظهري.. كنت أعود من المدرسة فأضع الحقيبة الصغيرة، وأذهب على رؤوس أصابعي ماشياً إلى الحديقة وأصيد ذباباً ملوناً أضعه تحت كأس زجاجي مقلوب.. كلهم كانوا ينظرون إلي بعيون حمراء.. وكنت أنا لا أخاف كثيراً.. ولكنني بقيت كلباً.. كانوا يضربونني كل يوم مرات كثيرة، كانوا يضربونني على رأسي، دائماً على رأسي.. وكانوا يقولون وهم يضربونني: «قتلتها أيها الكلب..». مرة ضربتني أمي على رأسي بكربي كبير فأخذ الذباب الملون يبيكي.. وكنت أنا أيضاً أبكي.. ولكنني بقيت كلباً.. مرة ربطني والدي بحبل مبلول ورماني في الحديقة إلى الصباح، وفي الليل نزل المطر فكبرت قليلاً.. وعند الصباح أتى رجل له لحية قصيرة وقال لأبي: «حرام!» وكنت جائعاً، ومقروراً، وأبكي، ولكنني بقيت كلباً صغيراً.. كانت أمي تضع الطعام على حافة البركة ولا تقول لي «هذا لك».. مرة لم أكل.. كنت جائعاً ولم أكل، فالقت أمي بالطعام إلى الماء.. وأخرج الطعام فقاعات ماء صغيرة إلى فوق..

كنت كلباً صغيراً أبكي كل يوم.. كنت أبكي وأنا نائم، وكنت أحلم دائماً أن ولداً صغيراً يبيكي كل النهار والليل وكانت دموعه ذات طعم كشراب الليمون.. وكانت أمي تقول لي عند الصباح: «أرجو من الله أن يأخذك». أمي تحب البكاء.. عندما ماتت أختي

بكت أمي كثيراً حتى أصبحت عيونها كبيرة وسوداء..

مرة قالت أمي لأبي أنها تريد ورداً لتأخذه إلى المقبرة.. وقالت أنها تريد أن تضعه على قبر أختي، خرجت أنا إلى الحديقة وقطفت زهرة صفراء كبيرة وأحضرتها إلى أمي كي لا تبكي.. وكى تضحك.. ولكن أمي أخذت الزهرة الصفراء، ورمتها، ثم ضربتني بكرسي كبير على رأسي.. ذهبت إلى الزاوية، قرب الباب، وجلست على البلاط.. كنت كلباً صغيراً، فأخذت أبكي، ثم نظرت إلى البلاط وقلت:

- يا رب! أنا لا أريد أن أبقى كلباً صغيراً.

بعد ذلك، رأيت كلاباً صغيرة كثيرة، كلاباً صغيرة جداً، كل كلب منها أصغر من الأصبع، وقفت الكلاب على البلاط أمامي وقالت: لماذا لا تصير ولدأ؟ قلت: نعم أريد أن أصير ولدأ.. لا أريد أن أبقى كلباً لا يحب القطط.. قالت الكلاب: هل تأتي معنا؟ كانت كلاباً صغيرة كل واحد منها في حجم الأصبع.. قلت: ولكن أين تذهبون أنتم؟ قالوا: تعال معنا.. قلت: ولكنكم صغار جداً.. قالوا: نعم، كي لا يرانا أحد.. قلت: حسناً، سوف آتي معكم.. قال أصغر كلب فيهم، وكنت لا أستطيع أن أراه لصغره: افتح الباب.. نحن صغار جداً ولا نستطيع فتحه..

قمت.. فإذا بي لم أعد كلباً.. ولم تعد لي أم بعد ذلك.. فتحت

الباب وخرجت إلى الزقاق.. لم يرني أحد.. مشيت، ومشيت.. دون أن يراني أحد.. لقد مشيت كثيراً حتى تعبت أمي.. ثم تطلعت إلى الكلاب الصغيرة فلم أجدها، لقد ضاعت بين الأعشاب.. وصلت إلى هذا المكان، لم يكن أحد قد وجده فجلست، أنا أجلس القرفصاء كي لا يتسخ ثوبي.. ولا أترك مكاني ابداً.. الكلاب الصغيرة لم أرها أبداً بعد ذلك.. مرة رأيت كلباً صغيراً ولكنه أكبر من تلك الكلاب.. قلت له: هل كنت صغيراً وكبرت؟ قال: نعم.. قلت: أين أصدقاؤك، هل كبروا؟ قال: نعم.. قلت: أين ذهبوا؟ قال: كل واحد منهم وجد مكاناً.. قلت: وأنا أيضاً وجدت مكاناً.. قال: حسناً.. قلت: هل سأعود أنا فأصبح كلباً؟ قال: كلا.

يقف الأولاد قرب المنعطف ويقولون: هل ستصبح كلباً؟ أنا لا أرد عليهم، إنهم صغار جداً وهم يخافون من الكلاب.. وأنا أيضاً لا أحب الكلاب.. ولا أحب القطط.. أنا لا أحب شيئاً إلا مكاني.. الأطفال الصغار رائعون، ولكنني لا أحبهم.. وأيضاً أنا لا أحب أن أضربهم. الولد الأشقر، يحضر لي الطعام ويقف بعيداً، هو لا يراني لأنني لا أنظر إليه، فإذا تعب من البحث عني يناديني.. وحينما يذهب أكل الطعام كله وأغسل الصحن بعناية، وأضعه في مكانه إلى جانب المنعطف، مرة لم أكل.. أنا أحب الولد الأشقر.. وقف بعيداً ثم

صاح: لماذا لم تأكل؟ قلت دون أن أنظر إليه: لأنني لست جائعاً..
فذهب دون أن يقول لي: «هل ستعود فتصبح كلباً؟» كما يقول
دائماً، وحينما أغلق الباب كنت مسروراً.. إنه لم يقل ذلك..
وضحكت كثيراً.. حتى سمعت آذان العصر.. فنمت.

بيروت - ١٩٦١

ثمانى دقائق

خرج السيد على متعباً من عمله، ورغم أنه اعتاد أن يقطع المسافة من الدائرة التي يعمل فيها إلى بيته ماشياً.. إلا إنه فضل أن يستأجر سيارة تقله إلى هناك. وطوال الطريق كان ما زال يفكر بالقضية التي شغلت كل نهاره: متى يختار أيام إجازته؟ وكيف يقضيها؟ وأين؟ في كل عام لا بدّ لهذا الموضوع أن يأخذ حيزاً كبيراً من الوقت، وحينما وصلت السيارة إلى باب العمارة الكبيرة، عد للسائق أجرته، وهز رأسه للبواب بشيء من الكبرياء، وتوجه إلى المصعد..

هناك، وهو واقف ينتظر هبوط التابوت، كما كان يسميه، جاءته المفاجأة التي لم يكن يتوقعها: نسي مفاتيح البيت! ثم تذكر كيف تركها على طاولته في المكتب.. ما العمل؟ سأل نفسه بحزم، ودار دورة صغيرة على عقبه.

- ماذا حدث يا سيد على؟

- لا شيء.. لا شيء يا تيسير، فقط نسيت المفاتيح.

- أستطيع أن أفتح الباب من الداخل، يا سيد علي، ولكن هل

تذكر أنك تركت أبواب شرفتك مفتوحة؟

- أبواب الشرفة؟ أنت تقصد أنك تريد أن تقفز من الشرفة

المجاورة إلى شرفتي؟

- نعم.

أجاب البواب بهدوء، فانزاح عن جبين السيد علي خوف

الاقتراح الجريء.. أن يقفز الإنسان من شرفة إلى شرفة في الطابق

التاسع ليس لعبة جميلة، فالجدار الذي يفصل بين الشرفتين جدار

ثابت إلى خارج العمارة مما يجعل الدوران حوله - على ذلك العلو

الشاهق - أمراً يبعث على الدوخة.. ولكن لهجة تيسير كانت تحمل

هدوءاً عجبياً، فاندفع السيد علي يقول:

- نعم.. لقد تركت أبواب الشرفة مفتوحة، أنا متأكد أنني تركتها

كذلك..

-١-

.. وصل المصعد، ففتح تيسير الباب، ثم تركه ينغلق وراءه،

كانت الساعة العتيقة في معصمه تشير إلى الثانية وسبع دقائق، وكان العقرب الأحمر يدور على محوره كشيطان صغير، أسقط ذراعه على فخذه بإهمال، ثم أخذ يحدق إلى وجهه بمرآة المصعد المكسورة، كان في حلقه مذاق زيت القطن، وشعر بأن تنفسه ثقيل بعض الشيء.. «لا، أنا لست خائفاً..» هز رأسه في مواجهة المرأة، وابتسم ماداً شفتيه إلى أقصى ما يستطيع، ثم فرد ذراعيه واستند بهما إلى جداري المصعد وأخذ يحدق، منحنيّاً بعض الشيء، إلى الدوائر الزرقاء المرسومة حول عينيه.

كانت في رأسه فكرة ملفوفة بشرنقة من حرير بنفسجي، وكان يدور حولها دبّور يستمتع بالانتظار، ولكن الفكرة كانت هناك، وكان الدّبور عاجزاً، بملء رغبته، عن الوصول إلى ما في داخل الشرنقة.. عما قليل سيصل إلى الشقة رقم ١٣ التي لم تؤجر ولا حتى لنصف يوم. وفي طريقه إلى الشرفة سوف يمر بباب الحمام، هناك، لا بد أن يجد صرصاراً في ركن ما، مقلوباً على ظهره متظاهراً بأنه ميت، ثم سيصل إلى غرفة النوم، وسوف يجد كرات صغيرة من الغبار ملتفة على هيكل من الشعر.. من أين يأتي الشعر إلى غرفة لم تسكن قط؟ ثم سيدور مقبض باب الشرفة الزجاجي..لا، يحسن أن لا يفكر بهذا الأمر.

«أنت خائف يا تيسير!» عقد ذراعيه على صدره وفكر: «إن المصعد يزحف صاعداً ببطء قاتل كأنه ثعبان بلا ذيل، لا بد من إصلاحه ذات يوم». كان يعرف أن كل ذلك ليس إلا رغبة في الابتعاد عن الشرنقة البنفسجية، وكان خائفاً من الاقتراب منها أكثر.. لذلك حاول أن يتمسك بفكرة أخرى، كانت فكرة سخيفة: ماذا لو يظل المصعد يرتفع بلا توقف، يصل إلى السطح، ثم يظل يرتفع، بلا توقف، «أرأيت يا تيسير؟ أنت خائف». عاد فنظر إلى المرأة، وابتسم ابتسامة واسعة مستشعراً رغبة عريضة في أن يمد لسانه، ولكن المصعد توقف، وأخذ قلبه يخفق: «هذا لأن المصعد وقف فجأة» قال لنفسه، «دائماً يحدث نفس الشيء»، «سوف أضع يدي أولاً على الجدار الفاصل بين الشرفتين، ثم أرفع ساقاً واحدة، وأضع قدمي على حافة الحاجز الحديدي الأزرق، ثم أضع كفاً على الطرف الآخر من الجدار الفاصل، هنا، لا بد من أن أنقل الساق الأخرى فأضعها تحت الحاجز حتى يتيسر لي أن أنقل الساق الأولى إلى الحاجز الآخر»، نفذ رأسه، ودفع باب المصعد، ثم أخذ يفتش في جيوبه الواسعة على مفتاح الشقة ١٣، الشقة التي لم تؤجر ولا حتى لنصف يوم. وشعر بخيبة أمل صغيرة حين كان مفتاح الشقة بالذات هو أول مفتاح أخرجته يده.

وطوال الطريق إلى الشرفة حاول أن لا يفكر، كانت رأسه مملوءة بخبار أزرق شفاف، ترنم بأغنية صغيرة، ثم صمت وأطبق شفثيه بحزم، وحينما وضع كفه على مقبض باب الشرفة كان الدُّبور الملون قد اقترب من الشرنقة البنفسجية اقتراباً شديداً وأخذ يحوم فوقها مباشرة: «أتدري لماذا لم يستأجروا هذه الشقة ولا حتى لنصف يوم؟ لأنها تحمل رقماً مشؤوماً، نعم هذا هو السبب، إنها شقة مشؤومة..». شعر برغبة في أن يفلت قبضة الباب ويعود أدراجه، إلا إن ذلك كله لم يكن معقولاً، هز رأسه مراراً، وسحب المقبض بسرعة، وخطا متعجلاً إلى الحاجز الأزرق.

ها هو ذا الطابق التاسع! هكذا فكر وهو ينظر إلى تحت، إلا إن كل شيء كان كالمعتاد.

شاهد السيد علي يقف على الرصيف واضعاً يده في جيبه، وفي يده الأخرى صحيفة أخذ يضرب بها فخذيه.. وكانت ثمة سيارة صغيرة تبدو كأنها كلب مضغوط..

الآن، ليس في رأس تيسير سوى الشرنقة البنفسجية، والدُّبور فوقها، يحوم مطناً دون أن يصل إلى تمزيقها لاكتشاف ما فيها، وكان يئز ملوئاً، مستمتعاً بالانتظار، وكان تيسير مرتاحاً للشرنقة والدُّبور، غير راغب بأن يقترب أحدهما من الآخر أكثر.. مدَّ صدره فوق

الحاجز وحاول أن يتطلع إلى الشقة الأخرى ليرى ما إذا كان الباب مفتوحاً، إلا إنه لم ير شيئاً.. عاد، فنزع سترته، ثم نزع حذاءه، ونظر مرة أخرى إلى الطريق: حسناً، يا تيسير، أنت لست خائفاً، ولكن لماذا كل هذا؟

«السيد علي رجل طيب.. يجب أن أخدمه»، طوى سترته وذهب فوضعها إلى جانب الحذاء في الناحية الأخرى من الشرفة، ثم عاد، هز حديد الحاجز بعنف، واطمأن إلى أن الحاجز لا يتحرك، ونظر إلى فوق، ليس ثمة ما يمسك به، «مرة أحضرت له بعض الأغراض، شيئاً من البرتقال والموز، فأعطاني خمس ليرات وابتسم.» رفع قدمه، ووضعها فوق الحاجز، ووضع كفه على الجدار، كانت السيارة تحت ما زالت تبدو ككلب مضغوط ميت، وكان السيد علي ينظر تجاهه. «إذن! إذن هكذا! أنت تقوم بكل هذا كي تفتح له الباب فيمد يده بعشر ليرات، أو ربما خمس أهذا هو كل شيء؟ ثمن الحلق المنقوش بالنحاس ست ليرات، لقد وعدتها به.. أختك لم تضع في أذنها حلقاً قط.. كم عيداً مر وأنت تعدها بالحلق؟ ولكن، لو أعطاك خمس ليرات فقط؟ لو لم يعطك شيئاً؟» نقل يده إلى الناحية الأخرى من الحائط، وكانت، ثمة، لحظة جراءة صغيرة رفع فيها قدمه الثانية عن الأرض، وبقيت معلقة بالهواء هنيهة، مد

خلالها جسمه ببطء وصلابة، كعقرب على حافة شيء، وألصق صدره بالحائط الخشن ثم تحسس بكفه الأخرى الطرف الآخر من الجدار، ماداً أصابعه مثنية بعض الشيء، ببطء وتصلب وحذر، وفكر: «لا بد من لحظة جراءة أخرى أنقل فيها قدماً إلى هناك»، وكان يبدو لنفسه وكأنه مصلوب، كعنكبوت بانتظار قوة مفاجئة تحمله إلى مكان آخر، زحزح ساقيه: دقيقتين قاسيتين، ورغب في أن ينظر إلى تحت، فلوى رأسه بهدوء، وكان السيد علي صغيراً جداً.. وفجأة، وصل الدبور الملون مطناً، وحطّ على الشرنقة، فمزقها بعنف وهياج: «ماذا لو زلقت قدمك يا تيسير؟»

-٢-

.. حينما أغلق تيسير باب المصعد أدار السيد علي ظهره، وخرج إلى الشارع: «تيسير ولد شجاع.. العمل بالنسبة له شيء عادي». رفع رأسه إلى فوق، ولكنه لم يكن متأكداً من أيما شيء، كان في غاية التعب.. فأخذ يعد الطوابق حتى ركز بصره على الطابق التاسع.. «هناك شرفتي كان علي أن أعرفها من المنشقة الخضراء المعلقة على الجبل...» لم يكن تيسير قد وصل بعد، وتذكر

أن المصعد في هذه العمارة بطيء بشكل مخزٍ، إلا إنه عاد، فأخذ يتصور كيف تجري الأشياء دون قصد.. كان مرة ينتظر المصعد، حينما شعر بأن إنساناً يقف خلفه، التفت، كانت جارته واقفة هي الأخرى بانتظار المصعد.. وكانت هذه هي المرة الأولى التي التقيا فيها.. وصل المصعد.. ففتح لها الباب ثم دخل هو الآخر: «لا بد من أن أقول كلمة، يجب أن أبدأ علاقة ما..» كان الضوء الأحمر يشير إلى أن المصعد وصل إلى الطابق الثالث، وفكر أن عليه إيجاد كلمة مناسبة حتى لا يضيع الوقت.. وأخيراً وجدها:

- إنه أبطأ مصعد رأيته في حياتي!

نظرت إليه، وكانت غمازتها حبلً بابتسامة صغيرة. ثم هزت رأسها:

- فعلاً!

- أنعرفين؟ كنت أعتقد أن ثقل دمي أنا هو سبب بقاء المصعد.. أما الآن..

ابتسم، وأشار إليها، فابتسمت، وأرخت حاجبيها فوق عينيها، وصمتت.. توقف المصعد.. ففتح الباب هازأً رأسه تحية موجزة. وقبل أن يخطو إلى خارج المصعد سمع صوتها هادئاً:

- أرجو أن تنسى حكاية ثقل الدم..

شاهدها تبتسم حينما التفت، ثم انغلق الباب، وارتفع المصعد..
إيه! لقد كانت فرصة رائعة.. يومها، حدثها بالهاتف مدعياً أنه كان
يريد طلب شقة أخرى.. وفي الحديث قطع شوطاً جديداً.. وعند
الظهر استدعى تيسير وطلب منه أن يشتري له موزاً وبرتقالاً.. ثم
أعطاه خمس ليرات كي يأمن جانبه إذا ما لاحظ أمراً بينه وبين
جارتة..

رفع رأسه إلى فوق وبحث لهنيهة عن المنشقة الخضراء... لم
يصل تيسير بعد... رفع رأسه أكثر، إلى الطابق العاشر، فوجدها
واقفة هناك.. كانت تلبس قميصاً أبيض اللون، في لون الحليب،
وكانت تتكى بكوعها على الحاجز الحديدي الأزرق وتسند رأسها
على كفيها، وكانت - بلا شك - تنظر إليه..

رفع يده إلى رأسه فردت تحيته... واعتدلت في وقفتهما.. إنها
امرأة رائعة وضعت الأمور في نصابها منذ أول لقاء.. قالت له يومها:
«كل الذي أريده منك، هو كل الذي تريده مني، فلا تجعلها قصة
كبيرة..»

وصل تيسير فأطل من فوق الحاجز الأزرق، ثم خلع معطفه
وانحنى ليخلع حذاءه حينما أشارت المرأة، من فوق، تسأله عن
الحكاية، وتولى شرح الموضوع بالإشارة باذلاً جهداً كاملاً ليبين

لجارتة الحسناء كل ما في حكاية تيسير، وحكاية وقفته تحت..

«ماذا لو وقع تيسير؟» سأل نفسه السؤال فجأة، ثم ما لبث أن

استبعده بعنف.. إنه ولد شجاع، من يدري، ربما لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يقفز فيها من شرفة إلى شرفة..

لو سقط، لشغل من وقتي ما يعطل عليّ إجازتي.. ومرة أخرى

لم تعجبه الفكرة فقال بصوت خافت: «لا شك أنني حقير.. أقارن

إجازتي بموت إنسان»، ورغم ذلك كان يحس أنه لا يريد أن يفقد

إجازته، وأن وجودها، هناك، هاجعة في الشرنقة البنفسجية دون أن

تمس، أمر يبعث في أطرافه خدر سعادة لا توصف. أوشك تيسير

على تخطي الحاجز، وشاهده ينزلق بطيئاً: يداً في الفراغ والثانية

ملتصقة على وجه الجدار، ثم يدور جسده: بطيئاً حذراً، ويصبح

الأمر كله على وشك أن ينقضي لو تبدأ الساق اليمنى بالتحرك، في

هذه اللحظة دار عنق تيسير وخيل للسيد علي أنه ينظر إليه، ود أن

يرفع له يده محيياً، إلا إنه شاهد، في نفس اللحظة تقريباً، قصاصة

ورق بيضاء تتموج ساقطة ببطء أمام تيسير، متأرجحة كجناح

منبسط صغير، بشيء من النشوة، ثم شاهد جارتة تشير إلى الورقة

بحركة فهم منها أنها رسالة إليه.



قرأ السيد علي الورقة بلهفة، ثم توجه إلى المصعد، كان تيسير، في تلك اللحظة، قد دار حول نفسه واجتزأ المسافة الباقية بقفزة جريئة سقط إثرها على شرفة السيد علي، وتوقف هنيهة، تنفس الصعداء، كانت ثمة قطرات من عرق مالح تبلل أطراف شفتيه وكانت كفاه أيضاً مبللتين بالعرق، أخذ نفساً طويلاً، كان ألم صغير - كدبوس - يدغدغ أصابع قدميه، دفع باب الشرفة، كان رأسه خالياً من كل شيء وكانت في صدره رغبة حارة لبكاء بلا دموع، وخيل إليه - لمدى وهلة واحدة - أنه آت من البحر بعد نهار كامل من السباحة.

وضع يده على مقبض الباب.. ثم شده فوجد السيد علي واقفاً أمامه:

- أهنتك يا تيسير.. كان عملاً رائعاً..

حاول تيسير أن يتكلم، ولكن طعم زيت القطن كان ما زال يغسل حلقه.. فهز رأسه وابتسم.

- تيسير، هذه خمس وعشرون ليرة.. أريدك أن تشتري لي

زجاجة ويسكي صغيرة، وقليلاً من الفواكه، وتحتفظ لنفسك بالباقي.
ابتسم تيسير مرة أخرى، وحسب في رأسه بسرعة ما عساه أن
يوفر: «سوف يبقى لي حوالي عشر ليرات». إلا إنه استشعر شيئاً من
القلق.. وليس يدري لماذا رغب في أن يدير ظهره، ويمضي بأقصى
ما يستطيع من السرعة.

- لا تجعل وجهك كئيماً.. حينما تحضر الويسكي والفواكه،
خذها رأساً إلى الطابق العاشر، فوق.

غمز بعينه مرحاً، كان واقفاً في حلق الباب، وكان تيسير ينظر
- دون أن يفكر - إلى ورقة الخمس والعشرين بين كفيه.. ثم نظر
إلى ساعته، لمجرد أنه لا يعرف ماذا يتعين عليه أن يفعل، كانت
تشير إلى الثانية والربع بالضبط، عاد فنظر إلى وجه السيد علي،
كان يبتسم وهو ينظر إليه، ثم مد يده، وأمسك طرف الباب، وصفقه،
فانغلق محدثاً دويّاً جافاً، وعرك الورقة بين أصابعه وقفز درجتين
دفعة واحدة، وغمز تيسير مرة أخرى قاذفاً الورقة البيضاء المكورة
من بين أصابعه.

تدحرجت الورقة بين قدمي تيسير، فيما كان رأسه يدور في
دويّ باب شقة السيد علي.. وهو ينغلق.

بيروت - ١٩٦١

أكتاف الآخرين

في طريقي إلى المطعم كنت أشعر بأنني إنما أسير في عالم جديد، كل ما فيه جديد، الهواء والشمس والناس، ولم يكن الشارع الذي اعتدت أن أجتاز كل يوم في طريقي إلى المطعم شيئاً مألوفاً بعد، كان هو الآخر شيئاً جديداً، بدا لي كأنني أمشي فيه للمرة الأولى..

لو كنت أعرف أن الأمور سوف تنتهي على تلك الشاكلة، وبذلك البساطة، لأنهيته منذ زمن بعيد.. لقد كانت، ثمّة، كلمة واحدة، وسقط الأمر كله عن كتفي، وأحسست بأنني انطلقت من نافذة كانت موصدة، وصرت مثل بقية الناس.. كانت رثائي قد اتسعتا، فجأة، وأصبح التنفس، مجرد التنفس، عملاً في غاية المتعة!

كيف حدث الأمر؟ يبدو لي الآن أنه حدث تحت دفع قوة قاهرة، ليست أنا، أو هي، أنا في الواقع، ولكن دون خوف. لقد وقفت أمامه في مكتبه وكنت أعلم أنه إنما استدعاني ليعيد على

مسامعي ما رددته أكثر من أربع مرات في الشهور الخمسة الفائتة:
- يا رياض.. أنت تهمل عملك الحزبي بشكل رهيب.. خمسة
شهور ورأسك في مكان آخر، كأنك لم تعد معنا.. قلتها لك أربع
مرات، وما زلت أؤجل الإنذار الأخير، لأنك خامة صالحة..

هكذا يتحدث دائماً، هكذا كان يتحدث، نفس الكلمات التي
كانت تجعلني أرتجف أمامه: «بشكل رهيب!» و«رأسك في مكان
آخر» و«خامة صالحة» كل ذلك بدا لي ساعتها شيئاً متهافتاً كزجاج
سيء الصنع، ورغم ذلك فلقد كانت خيوط المطاط تشد لساني إلى
الداخل، وكنت أدور منفضة السجائر على طاولته محترراً..

- ماذا دهاك؟.. هل تريد أن تترك الحزب؟

- نعم..

قلتها فجأة، ودون أن اقدر على إيقافها أو تأجيلها أو طلبها
بدهان آخر، ولكن ما إن قفزت من شفتي حتى تقطعت خيوط
المطاط، وانفتحت النافذة، ولم أعد أبالي.. وحينما نظرت إليه كان
قد صار رجلاً آخر، يقف هناك، لا يهمني، واحداً كالآخرين ليس له
مقعد في رأسي أو على كتفي..

كلمة واحدة فقط، وسقط كل شيء فوق البلاط وتلاشى..
وحينما صفقت الباب خلفي لم يكن ثمة ندم على الإطلاق.. وكان

الناس على الرصيف المقابل، يمشون مثلي، دون أن تكون ثمة أثقال على أكتافهم..

ثلاث سنوات وأنا أحمل قدراً كاملاً على كتفي.. كأنني رجل ليس له في حياته من عمل سوى حمل ذلك القدر والمسير تحته على حصى وشوك، كأن الحياة، كلها، هي أن أكون حملاً لحياة ليست لي.. وكان الآخرون، طوال تلك السنين الثلاث يعيشون حياة لهم، ليس ثمة أثقال على أكتافهم، مجرد الحياة دون ذلك الارتباط الغبي الثقيل.. لماذا لم أختَر الحياة مثلما اختاروها؟ هذا سؤال لم أفكر به قط.. لقد نما في جوفي دون أن أحس به، وحينما أصبح ناضجاً، سقط عن شفتي بارداً:

- هل تريد أن تترك الحزب؟

- نعم..

وهأنذا خارج النافذة، مثل البقية، مثل الآلاف الذين شاهدتهم في الشارع يمشون على الرصيف المقابل، ذاهبين، وآيين، سيان.. دون أي حزن، دون أي ندم.. غمرة، فقط، من ضباب بلا لون.. وحينما وقفت أمام واجهة تعرض أربطة عنق ملونة، مرّ سؤال في رأسي: «ترى هل أنا سعيد لمجرد أنني تخلصت.. أم لأنني تخلصت بسهولة، وبلا ندم؟» كانت أربطة عنق ملونة فاخرة، وكان السؤال

سخيلاً ولا محل له.. وفي ركن الواجهة كانت ربطة عنق بيضاء منقوشة بنمش أحمر، ملقاة ببراعة فوق أصداف فضية لامعة «ليس من الضروري أن يعيش الإنسان وهو يؤمن بشيء ما يوقف عمره من أجله.. الحياة هي الحياة فقط، مثلما يعيشها الناس..» وقف رجل أطلع إلى جانبي وأخذ ينظر إلى مروحة من الأربطة كانت ملصوقة على الجدار الداخلي للواجهة، ممثلة جناحي فراشة كبيرة: «مثل هذا مثلاً، أعيش كما يعيش، غير ملاحق بأي شيء ثقيل..»

وحيثما تركت الواجهة عاد إلي الفرح بشكل أوضح، وكان الناس يمرون من جانبي، وكنت أنا الآخر أمر من جانبهم، غير ملاحقين بأي شيء، وعجبت كيف لم يتسن لي أن اكتشف روعة الحياة على هذه الشاكلة، منذ زمن بعيد..

حتى أبو سليم.. خادم المطعم العجوز، كان إنساناً جديداً جديراً بالمراقبة، فرش أمامي غطاء جديداً نظيفاً، وضم راحتيه فوق سترته البيضاء، ووقف ينتظر..

- سوف أكل أي شيء تضعه أمامي..

ابتسم أبو سليم، كان شاربه الكثيف يخفي شفته العليا، وكان حاجباه الرماديان يتصلان فوق أنف شديد الطيبة، وتشع تحتها عينا صغيرتان، وبدت لي لحيته الخشنة القصيرة أنها تحتفظ

بطولها دائماً، وكانت صلعته الصغيرة، هذه المرة، تختفي تحت
طاقية مطرزة بألوان خضراء وحمراء وصفراء.. «هوذا إنسان يعيش
هنا كما يريد.. تماماً كما تعيش، إلى جانبه، أمواج البحر التي تضرب
جدران المطعم السفلي كل دقيقة.. كالشبابيك الزجاجية التي تطل
على الماء المتلاطم.. دون أن يحمل ثقل الآخرين.. ودون أن يلاحق
بهم.. أعوام طويلة هنا، ولكنها أعوامه هو، كلها كانت له، ببساطة،
وبلا ثقل..»

وعجبت كيف لم أكتشف أبا سليم قبل اليوم رغم أنني أتناول
طعامي كل ظهر في نفس هذا المطعم منذ ستة شهور.. حتى البحر،
البحر الذي يلطم جدران المطعم لم أنظر إليه قبل اليوم: كان مزيداً
مرغياً غاضباً، إلا إنه كان، رغم ذلك كله، شيئاً قريباً إلى القلب ولا
يخيف..

«أستغني عن عشرين يوماً من عمري لو قدر لي أن أرى سحنته
مرة أخرى حينما قلت له «نعم».. عشرون يوماً كاملاً لو قدر لي أن
أرى استدارة عينيه المبتغوتين مرة أخرى..»

رمى عقب السيجارة إلى الماء، فطاف فوق الزبد هنيهة، ثم
ضاع في الهياج الغاضب، وأشعلت لفافة أخرى متطلعاً إلى الامواج
وهي تحمل زبدها إلى الجدران، ثم تردد مهزومة لتنتوي داخل

الماء وتضيع: «دعك من كل هذا.. أتريد أن تعيش حياة فارغة؟. مثل أبي سليم؟. عبث بلا مبرر..» كان على الطاولة المقابلة رجل انتهى لتوه من طعامه، ومضى، متكئاً، يدخل عودة خشبية صغيرة بين أسنانه: «أنت سعيد لمجرد أنك غيّرت، لا لأنك غادرت..» صفق الرجل فركض أبو سليم تجاهه وأخذاً يتحاسبان. «دائماً يحدث مثل هذا؟ فكرة إلى الوراثة وفكرة إلى الأمام.. ما الذي يمنع أن أكون كالبقية؟» وتصورت لوهلة أنني عدت إليه، ووقفت أمام مكتبه طاوياً كفي على بطني: «هأنذا لقد عدت ككلب!» كلا! هذا لن يحدث أبداً..

أسقطت اللقافة من النافذة، فحملها الزبد إلى الجدار، ثم طواها ومددت يدي من جديد إلى علبة السجائر:

- الأفضل أن لا تشعل واحدة جديدة يا أستاذ رياض، وصل الأكل..

قالها أبو سليم وهو يتنسم، ثم دار حولي، ورمى من النافذة قطعاً صغيرة من الخبز كان قد حملها من مائدة أخرى، وقال شيئاً ما بصوت خفيض، ثم أخذ يرتب الأطباق.

- ماذا قلت يا أبا سليم؟

- عفواً، لم أكن أتحدث إليك، كنت أخطب السمك..

- السمك؟.

سألت متعجباً، واستدرت لأواجهه:

- هل قلت أنك كنت تخاطب السمك؟

أجاب ببساطة:

- نعم..

- وماذا قلت للسمك الآن؟.

استمر في ترتيب الصحون، ثم دفع أمامي رغيفاً وهو يقول:

- قلت «اعمل صالحاً.. وارمه في البحر...»

بدا لي أنه اعتاد الإجابة على مثل هذه الأسئلة، لذلك كانت

لهجته تحمل قناعة وبساطة دون أن تحمل نغم من يقول شيئاً جديداً..

- هل ترمي الخبز دائماً إلى السمك؟

- الفتات الذي يتبقى على موائد الزبائن.. السمك أحق به من

سلة القمامة.. إنني أطعم السمك منذ عشرين عاماً..

كان في صوته رنة فخار بعيدة، ولكنه لم ينظر إليّ، بل قدّم

الفوطة، وهز رأسه الواهن، ومضى إلى طاولة أخرى..

أكلت لقمة.. إلا إن الفكرة كانت ما تزال تدور في جبیني،

نهضت، ونظرت عبر النافذة إلى بحيرة ماء راكد صنعتها صخرتان

متجاورتان بين الأمواج، وكانت تتأرجح على سطحها قطع مهترئة من الخبز، وكنت أستطيع أن أتبين الأسماك الفضية تتحلق حولها.. عدت لأتابع تناول طعامي، إلا إنني كنت غير قادر على انتزاع نفسي من التفكير بوجه أبي سليم المطمئن وهو يقوم بعمله منذ عشرين عاماً، وبدا لي كل ذلك أمراً لا يبعث على الارتياح. «اعمل صالحاً وارمه بالبحر..». شيء عجيب إلى حد الذهول.. عشرون عاماً وهو يعمل صالحاً ويرميه إلى البحر!. تراه لو كُف عن إلقاء الخبز إلى السمك.. هل سيخسر شيئاً؟

- أبو سليم..

ناديته فجأة، فاقترب حاملاً صحناً فارغاً، ووقف في مواجهتي:
- ولكن السمك، يا أبا سليم، ملايين.. أنت لا تستطيع أن تطعمها كلها..

نظر إليّ باستغراب، كأنه كان يتوقع مني أن أنسى قصة السمك.. ومال قليلاً ليضع الصحن الفارغ في ركن الطاولة المجاورة، ثم اتكأ على ظهر المقعد المقابل:

- على قدر ما أستطيع يا أستاذ رياض، على قدر ما أستطيع.. أنا لست مسؤولاً عن إطعامها كلها.. أنا لا أستطيع أن أطعمها كلها.. ولكن هذا كله افضل من سلة القمامة.. أليس كذلك؟

تناول الصحن، وقبل أن يمضي التفت تجاهي وهزّ رأسه وهو
يبتسم.. وكان الأمر كله، بالنسبة لي، شيئاً غير مريح.

أكملت طعامي مسرعاً وكنت غير قادر على وضع الأشياء في
مكانها.. استدعيت أبا سليم فأقبل ببساطة، ومدّ يده بالفاتورة.. كان
وجهه هادئاً فيه طمأنينة فخورة بدت لي كأنها معجونة في
تقاطيعه، وهكذا وجدت نفسي مسوقاً، رغم كل شيء، لأقول:

- يجب أن تكفّ عن إلقاء الخبز إلى السمك يا أبا سليم..

بقي العجوز هادئاً، ثم سأل:

- لماذا أكفّ عن إطعام السمك؟

أحسست برنة سخرية حادة وعميقة في سؤاله، ورغم ذلك فقد

تماسكت:

- أنت لا تعرف أن الخبز يقتل السمك..

أسقط يده برخاوة على جنبه، ثم سأل متمللاً:

- يقتل السمك؟ الخبز يقتل السمك؟ كيف؟

شعرت بالارتياح، فمضيت بالكذبة شوطاً آخر:

- السمك يحب الخبز، لذلك يأتي مسرعاً كي يأكله، ولكن بعد

ربع ساعة من وصول الخبز إلى معدته الصغيرة يفتك به، فيموت..

نظر إلى البحر هنيهة، ثم اعتمد على ركن الطاولة القريبة،

وكانت عيناه الصغيرتان ترجفان:

- ولكن لماذا؟

سأل بصوت متعب، فيما كانت أصابعه تتشنج وتنفرد فوق غطاء الطاولة.

- لماذا؟ لا أعرف لماذا! ولكننا درسنا هذا في المدرسة منذ زمن بعيد، الخبز يقتل السمك.

نظر أبو سليم حوله، ثم ركز عينيه الصغيرتين مباشرة في عيني:
- ولكن السمك يأكل الخبز..

- نعم.. السمك يحب الخبز، ولكن الخبز يقتل السمك...
- يقتله؟

سأل دون أن يعرف كيف يتعين عليه أن يستمر، فهززت رأسي،
بينما مضى يشد أصابعه فوق غطاء الطاولة، وينظر إلى الماء،
أحسست الحزن في عينيه الصغيرتين، والأسى في الأصابع المعروقة
الحائرة..

- لم يقل لي أحد ذلك قبل الآن...

- هذا شيء لا يعرفه إلا طلاب الجامعة..

- الخبز يقتل السمك؟

- نعم..

صفق زبون من بعيد متذمراً، ولكن أبا سليم تجاهله، قلت في نفسي: «ربما يحدث هذا لأول مرة منذ عشرين عاماً». أحسست بغیظ، فيما استمر أبو سليم، محزوناً، ينظر إلي، ثم إلى الماء، ثم يتشاغل بالنظر إلى الأرض..

- كنت أرمي الخبز إلى السمك طوال عشرين عاماً..

- عشرون عاماً؟

هز رأسه بحزن:

- نعم.. كل يوم، كل يوم، منذ عشرين عاماً..

أخذ صحناً عن الطاولة المجاورة ومسحه بطرف سترته، ثم أشاح بوجهه وهو يهمس، كأنما لنفسه:

- كنت أعتقد أن السمك يحب الخبز.. ويحبني..

هز رأسه متألماً، بينما صفق الزبون مرة أخرى بعنف:

- عشرون عاماً، كل يوم.. كل يوم..

رفع وجهه، فتبينت دموعاً لامعة تتسلل ببطء في شعر لحيته

القصير الخشن..

- إذن هكذا.. هكذا..

- ماذا؟

- كنت أقتل السمك طوال عشرين عاماً..

هززت رأسي وأنا أطبق شفتي بعنف، ورميت على الطاولة ثمن
الطعام، وخرجت إلى الشارع من جديد..

بيروت - ١٩٦١

قلعة العبيد

لو لم يكن رث الثياب بتلك الصورة المحزنة، لقلنا عنه إنه شاعر..
فالمكان الذي اختاره ليبنى فيه كوخه المتواضع من الخشب
والصفيح مكان رائع.. وعلى بعد أقدام من العتبة يتمسح جبروت
البحر تحت أقدام الصخور الحادة بصوت رتيب عميق.. كان وجهه
نحيلاً، ولحيته البيضاء تتخللها شعيرات سوداء تزيد في بؤسه،
وكانت عيونه غائرة تحت حاجبين منفوشين، ووجنتاه بارزتين كأبي
صخرتين صدف أن وقعتا حول نتوء كبير، كان أنفه.

لماذا ذهبنا إلى ذلك المكان؟ لست أذكر الآن.. لقد قطعنا في
سيارتنا الصغيرة طريقاً وعراً موحلاً لا ملامح له، واستغرقت رحلتنا
أكثر من ثلاث ساعات.. ثم أشار ثابت من نافذة السيارة بذراعه
وصاح بصوت ثاقب:

- ها هي «قلعة العبيد»..

و«قلعة العبيد» هذه كانت صخرة كبيرة، أكل الموج من أساسها فأصبحت تشبه جناح طائر عملاق دفن رأسه في الرمل، ومد جناحه فوق صخب البحر..

- لماذا سموها قلعة العبيد؟

- لست أدري.. ربما كان في الأمر حدث تاريخي ألصق بها هذا

الاسم.. هل ترون ذلك الكوخ؟

وأشار ثابت مرة أخرى إلى الكوخ الصغير الملقى في ظل الصخرة الجبارة، وأطفأ محرك سيارته، وهبطنا..

- يقولون إن عجوزاً نصف مجنون يسكنه..

- وماذا يفعل في هذا الخلاء لوحده؟

- ما يفعله أي نصف مجنون يخطر على بالك..

وشاهدنا العجوز - من بعيد - يجلس القرفصاء على عتبة

كوخه محتوياً رأسه بين كفيه، محدقاً إلى البحر..

- ألا تعتقد أن هذا العجوز له قصته الخاصة؟ لماذا تصر على

أنه نصف مجنون؟

- لست أدري.. هكذا سمعت عنه..

كان ثابت قد وصل إلى المكان الذي اختاره، فمهد الرمل،

وألقى بزجاجات الماء، وأخرج الطعام من الكيس، وجلس.

- يقولون إنه كان أباً لأربعة أولاد حالقهم الحظ، وهم الآن من أغنى أغنياء المنطقة..

- ثم ماذا؟

- لقد اختلف الأبناء حول إيواء أبيهم.. وتحكمت زوجاتهم في الأمر، فأنتهى القرار بالعجوز إلى الهرب والاستقرار هنا..

- إنها قصة تجري كل يوم.. ولا داعي لأن تخلق من العجوز نصف مجنون..

نظر ثابت إليّ بلا معنى، ثم أشعل مجموعة من الأخشاب التي شكل منها موقداً، وصب الماء في الإبريق وثبته فوق النار..

- المهم في القصة هو أن نتفق: هل كان هروبه إلى هنا من وحي نصفه المجنون أم من وحي نصفه العاقل؟

- ها هو ذا على بعد أمتار منك.. لماذا لا تقوم إليه فتسأله؟
نفخ ثابت في النار، ثم أخذ يفرك عينيه وقد استوى راکعاً على ركبتيه..

- إنني لا أستطيع أن أتحمل الفكرة التي يوحىها إليّ منظره..

- أية فكرة؟

- أن يمضي الرجل سبعين سنة من حياته بصورة قاسية، أن يعمل، أن يتعب، أن يكون موجوداً يوماً إثر يوم، وساعة وراء ساعة،

أن يأكل طوال سبعين عاماً من عرق كفيه، أن يعيش اليوم، آملاً في غد أفضل، أن ينام كل ليلة طوال سبعين سنة.. لماذا؟ ليمضي بقية عمره أخيراً مطروداً ككلب، وحيداً، جالساً هكذا.. انظر إليه.. كأنه حيوان قطبي فقد فراه.. هل تتصور أن يعيش الإنسان سبعين سنة.. ليصل إلى هنا؟ إني لا أتحمل!

وحدق إلينا من جديد، ثم بسط كفيه وعاد يصيح:

- تصور! سبعون سنة بلا فائدة. بلا معنى.. تصور أنك مشيت سبعين سنة على طريق واحد.. نفس الاتجاه، نفس الأطراف.. نفس الأفق.. نفس كل شيء.. إنه شيء لا يحتمل!

- ربما يخالفك العجوز في وجهة النظر.. ربما يعتقد أنه وصل إلى نهاية مختلفة عن حياته.. ربما كان يحب نهايته هذه.. لماذا لا تسأله؟

وقمنا إليه.. وحينما وصلنا إلى مكانه، رفع عينيه ورد سلامنا ببرود، ثم دعانا إلى الجلوس.. ومن خلال الباب الموارب شاهدنا الكوخ من الداخل.. كان فراشه الرث في الزاوية.. وكانت هنالك صخرة مربعة في الزاوية المقابلة.. شاهدنا عليها كوماً من المحار غير المفتوح. لقد خيم الصمت علينا هنيهة، قطعه العجوز بصوته الواهن:

- أتريدون شيئاً من المحار؟ إنني أبيع محاراً..
ولما لم يكن لدينا أي جواب، فلقد سأل ثابت:
- هل تصطاده أنت؟

- إنني أنتظر الجزر فألحق به إلى مسافة بعيدة في الداخل،
وأجمعه، ثم أبيعه للذين يريدون أن يجدوا فيه لؤلؤاً..
وحدقنا في وجوه بعضنا، ثم ما لبث ثابت أن طرح السؤال
الذي اعتمل في رؤوسنا جميعاً..

- لماذا لا تحاول أنت أن تجد لؤلؤاً داخل هذا المحار؟
- أنا؟

قالها وكأنه يعني لأول مرة أنه موجود فعلاً... أو كأن الفكرة لم
تطراً على باله إطلاقاً... ثم هز رأسه، وصمت..
- بكم تبيع الكوم؟

- بمبلغ زهيد... برغيف أو برغيفين..

- إنه محار صغير، لا يوجد فيه لؤلؤ حتماً...

نظر إلينا العجوز بعينيه المطفأتين تحت حواجه المنفوشة،
وقال بحدة:

- هل تفهم أنت في المحار؟ من يدريك أنه لا يوجد فيه لؤلؤ
أو يوجد؟

وكأنما خشي أن يندفع أكثر ويضيع الصفقة.. فصمت..

- وهل تستطيع أنت أن تعرف؟

- لا.. لا أحد يعرف..

وأخذ يتلهى بصدفة وجدها أمامه متجاهلاً وجودنا، وكأننا لسنا

هناك..

- إذن بغنا كوماً..

استدار العجوز، وأشار إلى الكوم المرصوف فوق الصخرة

المربعة وقال وفي صوته رنة فرح مكتومة:

- هات رغيفين وقم خذ هذا الكوم..

وحينما عدنا إلى مكاننا حاملين كوم المحار، عاد الشجار يأخذ

مجراه. قال ثابت:

- إنني أعتقد أنه ليس نصف مجنون، وليس له أولاد اغنياء.. كل

ما هنالك أنه رجل فقير وجد أسلوبه في التسول الشريف..

- بل أعتقد أن هذه العيون ليست سوى عيون مجنون.. وإلا

لماذا لا يفتح المحار فربما وجد لؤلؤة ما؟

- ربما مل من المحاولات ففضل أن يبقى متفرجاً ورابحاً معاً..

لقد شغلنا نصف نهارنا في فتح المحار حتى أتينا عليه.. وكومنا

حولنا بطون المحارات الهلامية الفارغة.. ثم أخذنا نضحك على

جنوننا..

وعند العصر، اقترح عليّ ثابت أن أحمل إلى العجوز فنجائاً من
الشاي الثقيل، علّ هذا يدخل إلى صدره شيئاً من الفرح..
وحملت الشاي إليه.. لقد راودني إحساس صغير بالخوف،
ولكنه دعاني إلى الجلوس، وأخذ يرتشف شايه بشغف..

- هل وجدتم شيئاً في المحار؟

- كلا.. لم نجد أي شيء، لقد ضحكت علينا..

هز رأسه بآلم، ورشف رشفة أخرى.. وقال كأنما يحدث نفسه:

- ضحكت عليكم برغيفين!

وعاد يهز رأسه من جديد.. ثم نظر إليّ فجأة وصاح بحدة:

- لو كانت هذه المهارات حياتك. أعني لو كانت كل محارة

عبارة عن سنة من عمرك، وفتحتها واحدة إثر الأخرى فوجدتها

فارغة، أكنت تحزن حزنك لفقد رغيفين؟

لقد أخذت أرتعش.. وتأكد لي في لحظة أنني أمام مجنون

فعلاً، كانت عيونه - تحت حواجه المنفوشة - تلتمع ببريق حاد

وغير طبيعي، وكان ثوبه الرث ينتفض في ضوء العصر.. ولم أجد أية

كلمة أقولها، فحاولت أن أنهض، ولكنه أمسك زندي، وشعرت بكفه

الدقيقة قوية متشنجة.. ثم سمعت صوته:

- لا تخف.. أنا لست مجنوناً كما تعتقد.. اجلس، أريد أن أقول لك شيئاً.. إن أسعد لحظات يومي هي أن أتفرج على خيبة أمل من هذا الطراز..

وعدت إلى الجلوس شاعراً بشيء من الطمأنينة هذه المرة.. بينما أخذ هو ينظر من جديد إلى الأفق متجاهلاً وجودي وكأنه لم يدعني قبل هنيئة إلى الجلوس.. ثم التفت إلي:

- لقد كنت أعرف أنكم لن تجدوا شيئاً.. إن هذا المحار ما زال طفلاً، ولذلك لا يمكن أن يحتوي على أي جنين لؤلؤي.. ولكنني أردت أن أعرف..

وصمت من جديد.. وعاد يحدق إلى البحر، ثم قال كأنه يحدث نفسه:

- سوف يبدأ الجزر مبكراً هذه الليلة.. وعليّ أن أجمع كوماً من المحار.. فغداً سوف يأتي رجال آخرون..



قمت أجزّ حيرتي.. كانت قلعة العبيد مظلمة في ضوء المغيب، وكان الأصدقاء يشربون الشاي حول أكوام المحار الفارغة،

بينما أخذ العجوز يعدو خلف الجزر، منحنيّاً بين الفينة والأخرى
ليلتقط المحار المتخلف عن الماء..

الكويت - ١٩٦٠

سته نسور وطفل

كنت أعمل مدرّس موسيقى في القرى.. ويومذاك لم يكن من الضروري أن يكون مدرس الموسيقى يفهم بالموسيقى.. كل ما كان عليه أن يؤديه هو إنشاد بعض الأناشيد أمام الصبية، ثم العمل على ضبط الإيقاع حينما ينطلقون بالإنشاد مجموعة.

لم يكن عملي مرهقاً البتة.. لولا أنني - بحكم المادة التي أدرسها - كان عليّ أن أتقل بين ثلاث قرى لأؤدي دروسي فيها. ورغم أنني كنت أشعر في الأشهر الأولى بأني شيء نادر، إلا إن هذا الشعور اختفى كليّة حينما أصبح ركوب السيارة العتيقة، مع مجموعة من الفلاحين، وفوق أرض وعرة.. شيئاً لا يطلق.. وبالإضافة لذلك، كنت قد بدأت أشعر بأن عملي هذا ليس إلا دفناً بطيئاً للطموح الذي كنت أحمله يوم تخرجت من المدرسة الثانوية. كان ركوب السيارة أمراً مرهقاً حقاً! كنت أحاول أن أنام أحياناً

خلال الطريق، ولكن اهتزاز السيارة العنيف كان يحول بيني وبين أن أفعل.. وفي المرات القليلة التي كنت أشعر فيها بأني موشك على النوم، رغم كل شيء، كانت تردني إلى الواقع سلة، أو بطيخة، أو أي شيء آخر يدفعه رجل يجلس جوارى إلى حضني.. أو كنت أصحو فزعاً بعد لكزة عنيفة من جاري يرجوني فيها أن أدخل حكماً حول نزاع حدث بينه وبين زميله..

كل هذا كنت أحتمله على مضض.. لسبب قد لا يعرفه سوى مدرّس قام بعمله في القرى.. المدرّس هناك شيء مقدس.. وكان يعزّ علينا أن نحطم قدسيتنا الخاصة بتأفف عابر، أو بكلمة فظة.. لذلك كنا نهز رؤوسنا حينما نُشرك عنوة في موضوع، أو نبتسم بطيبة حينما يرجونا فلاح ما أن نمد له يد المساعدة..

كل هذا.. كنت أحتمله على مضض.. ولكن الأمر الذي كان يقدر على انتزاعي من وقاري، هو أن يدفع لي فلاح ما، في سيارة عتيقة، تهتز متأرجحة فوق طريق جبلي وعر، وفي لحظات، من المفروض أن تكون لحظات راحتي بين درس وآخر، يدفع بي عنوة إلى مشاركته الحديث والاهتمام طوال الطريق:

- هل لاحظت هذه الصخرة يا أستاذ؟

قالها فلاح عجوز ذات يوم، مشيراً عبر النافذة إلى صخرة مدببة

تنتصب فوق تلة صغيرة..

- نعم.. إنني أراها ثلاث مرات في الأسبوع..

بقيت إصبعه ممدودة تجاه الصخرة وهو يسأل من جديد:

- هل تعرف قصتها؟

- حتى هذه الصخرة لها قصة؟

سألت مستغرباً، مع علمي بأن لكل شيء في القرية قصة،

ولكنني لم أكن أعلم أن لهذه الصخرة الصغيرة، في ذلك الطريق

المهمل البعيد، قصة أيضاً. ورغم ذلك فلقد حمل سؤالي تأффاً

واضحاً، وفرشت الجريدة أمام عيني، وأخذت أتلهى بالقراءة.

- بدأت منذ زمان بعيد..

تجاهلته، ومضيت بالقراءة، كنت على يقين أن الفلاح العجوز

لا ينظر إليّ، ولكنه يحدق إلى الصخرة وهي تنجرّ رويداً رويداً في

أفق النافذة.

- كنت أسافر كل يومين مرة.. وكنت أمرّ بها دائماً فأشاهد

فوقها نسرّاً رمادياً يقف كشيء محنط.. كان يأتي في الصباح.. فيطير

فوقها بجناحين كبيرين، ثم يحط بهدوء، ويبقى كذلك إلى أن يأتي

المساء فيحلق عائداً إلى الجبل من جديد..

طويت الجريدة ووضعتها في جيبي ونظرت إلى وجه العجوز

كانه كان يتكلم عن أحد اولاده:

- طوال ستة شهور لم ينقطع يوماً عن المجيء..

- هل عرفت السبب؟

نظر إليّ فجأة كأنه يشاهدني لأول مرة.. وتريث هنيهة قبل أن

يحول وجهه إلى النافذة من جديد ويجيب على سؤالي:

- إن أحداً لا يعرف لماذا يفعل الحيوان ما يفعل.. ولكن هذا

النسر بالذات ولد على تلك الصخرة.. كانت أمه طاعنة في السن

فلم تستطع أن تضع البيض على الجبل فتركته هنا.. وحينما فقس

البيض عن الفراخ، ماتت الأم، وبقيت ملقاة على تلك الصخرة..

عاد، فحول وجهه عن النافذة، ونظر إليّ:

- حينما كبر النسر وشعر بدنو أجله.. أصبح يأتي كل يوم

فيقف حيث ماتت أمه.. وينتظر..

- وهل مات؟

- نعم.. مررت ذات يوم فلم أجده..

عدت، ففتحت الجريدة من جديد وأخذت أقرأ.. ولكن العجوز

لم يكن قد أكمل قصته..

- النسر حيوان وفيّ..

في طريق عودتي.. جلس إلى جانبي فلاح شاب يحمل كيساً

كبيراً من الذرة.. في أول الأمر تبادلنا حديثاً موجزاً، وحينما مررنا أمام الصخرة لكزني في كتفي.. وأشار عبر النافذة إليها.. كان على وشك أن يبدأ لولا أن قاطعته:

- رحم الله النسر.. أنت تعرف قصته بلا شك... لقد كان وفيّاً..

أسقط كفه فوق فخذه، وهز رأسه بأسى:

- الحب.. الحب يفعل ذلك كله..

- أي حب؟

- كانت تحبه بلا شك..

- من؟

نظر إليّ باستغراب، ثم هتف:

- أنثى النسر التي ماتت!.. يبدو أنك لا تعرف القصة..

اعتدل في جلسته حتى واجهني تماماً ملقياً بثقل كيس الذرة

على ركبتيّ:

- كانت تأتي كل صباح.. فتحوم فوق الصخرة.. ثم تهبط، وتقف

إلى أن يأتي الغروب لتعود مع الشفق إلى الجبل..

تنهدت.. وسألت بفروغ صبر:

- ولكن لماذا؟

- القصة طويلة.. يقال إن نسرين فحلين تشاجرا مرة فوق هذه

الصخرة من أجلها.. كان زعيقهما يسمع عن بعد.. ولقد تناقرا حتى دميا.. وأخيراً قتل أحدهما الآخر. إلا إن أنثى النسر لم تكن تحب الفائز.. وهكذا، دخل المسكين في شجار آخر معها غلب فيه شر غلبة.. وسقط قتيلاً هو الآخر إلى جانب غريمه..

- ثم ماذا؟

أشار بإبهامه إلى الخلف حيث مرت الصخرة وهز رأسه بآلم:

- ثم اخذت تبكيهما فوق الصخرة إلى أن ماتت..

- هل تعرف كيف ماتت؟

- أغلب الظن أنها كفت عن الأكل..

عاد، فاعتدل في جلسته وأخذ ينظر عبر النافذة إلى التلال

الجرداء قائلاً كمن يهمس:

- أنثى النسر حيوان متوحش..

بعد أسبوع، كدت أنسى القصتين.. لولا أن ذكرتني امرأة كهلة،

جلست إلى جانبي في ثيابها الفضفاضة:

- لو كان زوجها مكانها.. هل كان فعل مثلها؟

أشارت إلى الصخرة، ونظرت إلي كمن يريد أن يدفعني إلى أن

أؤكد ظنه.. قلت:

- من يدري؟ قد يفعل مثلها.. ألم يمت من أجلها؟

- من أجلها؟

جأرت سائلة.. ثم هزت رأسها:

- كانا يأتیان هنا دائماً.. وكنت أراهما كل أسبوع حينما أسافر..

يتناقران بهدوء، ويهرآن كقطين صغيرين.. كنت ما زلت مخطوبة إلى أبي الحسن، ولذلك كنت أنظر إليهما بإمعان كلما مررت من هنا.. ثم وجدتها، بعد حين، تقف وحدها.. أغلب الظن أنه طار وراء واحدة أخرى..

ضحكت، وسألت مداعباً:

- ما الذي أدراك أنه طار وراء واحدة أخرى؟

- كلكم كذلك.. والنسور أيضاً.. ربما وجد واحدة صغيرة فتركها..

نظرت إليّ بانفعال، وضربت كفها على فخذي:

- أرايت؟ لقد بقيت بعد هربه تأتي كل يوم.. تقف.. تنتظر..

تزعق، حتى ماتت..

- كيف ماتت؟

- غماً، بلا شك!..

حينما عدت تلك المرة كنت وحدي في السيارة.. إلا إن السائق

لم يتركني بهدوء.. لقد أشار إلى الصخرة، وأخذ يزعق خلال هدير المحرك..

- يروون قصصاً كثيرة عن نسر كان يقف على هذه الصخرة ولكنها كلها خيال بخيال.. كان النسر يقف هنا.. لأن عشه كان هنا.. ثم غير مكانه..

انحنيت، حتى يسمع جيداً، وصرخت سائلاً:
- لماذا؟

- أيام كان يقف هنا كنت أعمل على هذا الخط مع زميل واحد فقط، كنا لا نزعج الطريق بمرورنا.. ولكن مزيداً من السيارات وصلت للخط.. ومعظمها يعمل على المازوت، دخان المازوت شيء مزعج، والضجة مزعجة أكثر، لم تعد الصخرة مناسبة، فهرب بعشه إلى الجبل..

مرت فترة، أسبوع على الأغلب، لم أسافر بسبب مرض مفاجئ، وحينما أصبح باستطاعتي أن أعود إلى عملي شاركني السيارة زميل جديد أحسن ما فيه أنه لا يتكلم.. كان جديداً على العمل في القرى، فأمضى الطريق صامتاً، وأسعدني منه أن يفعل.. ولكن حينما مررنا بالصخرة لكرته.. كنت قد مللت من الصمت فلم أجد مانعاً من التحدث:

- أنظر.. هذه الصخرة سوف تسمع قصصاً كثيرة عنها بالمستقبل.. قصصاً تتعلق بنسر..

- نسر؟

- نعم..

صمت، وخيل إلي أنه على وشك أن يعاود النوم.. فعدت إلى

الحديث:

- إنني أعتقد أن النسر كان صغيراً.. فكان يأتي إلى هنا كل يوم،

فيقف حتى المساء.. ذلك لأن جناحيه الصغيرين لم يكن

باستطاعتهما أن يحمله إلى صخرة أعلى.. وحين كبر قليلاً وجد

مكاناً أعلى..

هز زميلي رأسه، وبدا لي أنه لا يرغب بالحديث فعاد إلى

النوم..

في طريق العودة.. شاركني زميل قديم السفر.. وخلال كل ذلك

الوقت أصبحت الصخرة علامة من علامات الطريق وعلامات

الحديث.. مررنا بها فملت على الزميل:

- أتعرف شيئاً عن هذه الصخرة؟

- إنني عاصرتها..

- كيف؟

- منذ طردت من عملي القديم بسبب نشاطي السياسي

اشتغلت هنا.. لذلك فأنا أعرف كل قصص النسر..

- وأبيها في رأيك أصح؟

تمدد جيداً في مقعده.. ونظر باسترخاء ناحية النافذة:

- النسر، كان يأتي إلى هنا لأنه يريد أن يأتي إلى هنا.. ليس في

الأمر أي لغز.. لماذا تحط فراشة على زهرة دون أخرى؟ نفس

القصة.. كان يأتي فيقف.. ثم يعود بهدوء إلى عشه..

- ولكنهم يقولون إنه مات..

- نعم، قتل..

مدّ أصبعه فأشار إلى كوخ أبيض يبعد عن الصخرة بضع عشرات

من الأمتار:

- قبل أن تبني الشرطة هذا المخفر، كان النسر يأتي كل يوم

وعندما بنوه واطب على الإتيان إلا إن أحد أفراد الدورية قتله ذات

يوم بمسدسه لأنه، كما قال، أزعجه بصوته وزعيقه.

- هل أصابته الرصاصة؟

هز رأسه ببطء، وعاد ينظر إلى المخفر، ثم همس:

- أصابته، ولكنها لم تقتله.. حاول أن يطير إلا إنه لم يستطع أن

يوصل طيرانه إلى فوق، فسقط في الوادي.

حل الشتاء، فغيرت السيارات الطريق متخذة طريقاً آخر لا

تطاله الثلوج.. وطوال شهور الشتاء لم أسمع أبداً حديث الصخرة

والنسر.. حتى إذا ما حل الربيع عادت السيارات إلى سلوك الطريق القديم..

لست أدري.. هل كان السبب في نسياني الصخرة عدم الحديث عنها، أم كون الطريق في الربيع تتخذ مظهراً خلاباً يجتذب الاهتمام كله.. مهما يكن.. فإن أياماً كثيرة مرت قبل أن أطل من نافذة السيارة، فأشاهد الصخرة مصادفة.. وأشاهد فوقها نسراً كبيراً يضم جناحيه الرماديين ويقف كشيء محنط يحدق باتجاه الطريق..

- لقد عاد النسر..

قلت ذلك باللهجة الجديرة بالخبر الكبير دافعاً كتف زميلي، رغم أنه كان طفلاً، مشيراً برأسي إلى الصخرة..

- أي نسر؟

سأل الطفل ببراءة، ناظراً إلى حيث أشرت.. فمددت أصبعي إلى خارج النافذة لافتاً نظره من جديد..

- هذا الذي يقف فوق تلك الصخرة.. ألا تعرف قصته؟

- تلك الصخرة؟

- نعم..

حدق إلي مبتسماً باستغباء، فهززت رأسي دون أن أكف عن الإشارة إلى الصخرة، بينما كان الطفل يتملى وجهي بإمعان قبل أن

يقول ببطء:

- هذه ليست نسرًا.. انظر جيداً.. شجيرة توت بري تنبت كل ربيع خلف الصخرة وتذبل في الصيف، أو تلتهمها الأرناب قبل أن تذبل..

حدقت جيداً.. وخيل إلي أن الطفل صادق.. ورغم ذلك لم أشأ أن أراجع.. فسألت متردداً:
- هل أنت متأكد؟

ابتسم من جديد، مستمتعاً أنه شاهد معلماً جاهلاً، وأكد باسماً كفيه الصغيرتين:
- حينما ينضج التوت آتي مع رفاقي لنسرقه.. طعمه لذيذ جداً..

بيروت - ١٩٦٠

القطّ

.. كان جالساً في القهوة فخطر له فجأة B ن يذهب إلى سميرة.. لقد اعتذر إلى رفاق الورق، ودفع مقعده وقام إلى الطريق: كان الطقس حاراً، والشمس تلهب رأسه، لكن شيئاً لم يكن ليستطيع إيقاف عزمه، وحينما شاهد أول سيارة أجرة أشار إليها واندفع إلى المقعد الخلفي هاتفاً بالسائق:

- الشارع الفلاني.

وحينما استقر في المقعد هجمت فكرة خبيثة على رأسه:

- أيها الكذاب.. أنت تذهب إلى سميرة لأنه ليس ثمة مكان

آخر تذهب إليه.. الفراغ هو الذي يجرك إليها..

ابتسم بكبرياء، وطرده الفكرة بصلف:

- أنا ذاهب إليها لأنني أريد أن أذهب إليها..

أحس، فيما كانت السيارة تندفع في الطريق، بغصة صغيرة في

حلقة كان يشعر بها كلما اعتزم أمراً كبيراً، وحينما نظر إلى ظاهر كفه كانت عروقه بارزة بصورة غير عادية، فأخذ يصفر لحناً قائلاً لنفسه:

- ليست هذه أول مرة أذهب فيها إلى سميرة.. وإلى ذلك فأنا أشعر بحاجة لها!

وأخذ يحدق خلال النافذة إلى الناس: نمل يسير في منحرجات طرقه الغريبة الخاصة من حيث لا يدري أحد، وإلى حيث لا يعرف أحد.. وفكر في أنه إنسان يعيش حياة كاملة: يفعل ما يريد، ويذهب إلى حيث يريد، وأن حياته كلها مرت دون هزات.. بل إن أية هزة لم تكن لتقدر أن تزحزح ثقته بهذا التفوق.. ما هو الذي يستحق أن يشوه له هدوءه واطمئنانه؟ إنه يذكر - بوضوح شديد - كيف ذهب لسميرة في نفس اليوم الذي مات فيه والده. لقد قال مرة لأحد أصدقائه إن سميرة هي كل شيء في هذه الدنيا.. هي الشيء الوحيد المحدد الذي يعرف المرء أين يبدأ وإلى أين ينتهي.. متى يستطيع أن يفهم هؤلاء النمل بأن سميرة هي الحقيقة؟.. وأن كل شيء ليس إلا غلافاً يغلف غلافاً آخر، وأنه ليس ثمة حقيقة على الإطلاق.. سواها؟ واكتشف فجأة أنه يتفوق على كل هؤلاء البشر النمل بأنه....

- بأنني ماذا؟

هز رأسه، واقتنع بأنه يتفوق على كل هؤلاء لسبب ما، لا بد أن يكون موجوداً في مكان ما، ولكنه ليس الآن في حاجة للتفتيش عنه، واكتفى من الاقتناع بالشعور الحقيقي الذي كان يتفجر داخل جسده، فيغسل عروقه، ويحس به في حلقه...

- أين تريد أن أقف يا سيدي؟

- أي مكان تستطيعه هنا..

حدق إلى وجه السائق الأشيب وهو ينقده.. وخطر لباله أن هذا السائق يعرف وجهته، ولكنه لم يشعر بالخجل، بل ابتسم في وجهه وقال لذات نفسه:

- لا بد من وجود هذا السائق كي يقودني إلى هنا، ولا بد من

وجود سميرة كي أسعد نفسي..

وأعطته هذه الفكرة يقيناً بأن شعوره بالتفوق لم يكن شعوراً فارغاً.. فالسائق يعرف، كما بدا له، أنه يوصله إلى حيث يريد أن يسعد نفسه، وسميرة تعرف أن عليها أن تسعده.. وهكذا بدأ يسير في الأزقة الضيقة التي تنتهي إلى بيت سميرة، شاعراً بأنه محور صغير تدور عليه الحياة كلها..

إلى هنا، كل شيء كان يجري على ما يرام، وكان يستشعر

الاقتناع العميق يتفجر داخل جسده.. ولكن الغصة التي كانت
تتقلب في حلقه كانت تكبر شيئاً بعد شيء.
- حسناً.. هذا يدل على أنني ما زلت أرغبها بكليتي... وهذا
أفضل.

ذلك أنه كان في الأيام الماضية يفقد رغبته بسميرة حينما
يقرع بابها.. ويحس تلك الغصة الصغيرة تذوب في حلقه، ثم تسقط
إلى معدته.. ثم يتم كل شيء دونما أية رغبة.. وكان هذا يورثه نقمة
لا حد لها.. أما الآن فكل شيء على ما يرام.

- لو سكنت سميرة في بيت يقع على رصيف شارع كبير،
لوفرت عليّ المشي في هذا الزقاق الكئيب.. لماذا لا تسكن في
مكان تقف فيه سيارة؟

كانت وجوه الناس ما زالت تمر في الزقاق أمامه، وكلما تعمق
إلى الداخل قلّت هذه الوجوه.

وبدا له أنه من المضحك أن كل هؤلاء يسكنون إلى جانب
سميرة، ولا يعرفون أنه ذاهب إليها.. بل ربما لا يعرفون سميرة
نفسها.. لقد كنتم ابتسامة سخرية مرة.. وراودته رغبة في أن يوقف
كل رجل يمر به، ويهزه من كتفيه، ويصيح به:
- أنت مسكين!

ثم يكمل طريقه إليها.. ولكن لماذا لا تسكن سميرة في مكان يتسع لدخول سيارة؟

- ربما تخاف من الشرطة.. ربما كانت النقود هي السبب، هذا لا يهم! المهم أن الغرفة واسعة ومريحة وأن سميرة.. الغصة ما زالت تكبر وتكبر، وكان هذا يورثه سعادة لا تثنى.. وفجأة، شاهد القط..

كان مقعياً على مؤخرته في ركن مبلول من الزقاق، باسطاً ذيله بصورة مستقيمة، رافعاً عنقه إلى فوق، مستعرضاً المارة بعيون مدورة، جامداً على غير عادة القطط.

لقد لمح له قبل أن يحاذيه ببضع خطوات، وخطر لباله سؤال ساذج:

- لماذا لا يتحرك هذا القط إطلاقاً؟

كان من الممكن أن يبقى السؤال بلا أي جواب. ولكنه حينما حاذى القط اشتد ضغط السؤال... فدار حوله مستطلعاً السبب. واجتاحته رجفة صغيرة، ولكنها سريعة وقاسية، حينما شاهد السائقين الخلفيتين للقط مهروستين، وتكادان تستويان مع الأرض.. كان الدم جامداً ومخلوطاً بشعر القط، وكانت الساقان ملقائتين وكأنهما ليستا لهذا القط، أكمل دورته وحقق إلى عيونه: ثمة

استسلام غريب وانتظار.

وعاد يسير داخل الزقاق باتجاه بيت سميرة.. وبدأ له أنه نسي كل شيء وهو يقرع الباب، ثم وهو يقبل سميرة كالعادة، ثم وهو يجلس قبالتها في الغرفة.

هذه هي الحقيقة! حينما يحدق إليها الآن يشعر بشيء من الغرابة.. كأنها شيء يشبه جبلاً مسحوراً يشد الإنسان عن بعد ولكنه - عن كئيب - ليس سوى أكوام صخور لا معنى لها ولا مبرر.. لا بد أن يكون ثمة تفسير لهذا الشيء، لماذا هذا الانجذاب المسعور للجبل الساحر، إذا كان هذا الجبل.. إذا كان ماذا؟ إنه ما زال يحس برغبة في أن يعانق هذا الجبل، عله يستطيع أن يمتزج فيه بكيفية ما.. كانت الرغبة تأكله في صدره، والغصة ما زالت تجرح حلقه كسكين ذات نصلين حادين.

- وجهك شديد الاصفرار.. هل أنت مريض؟

- أنا؟

وهو السؤال فجأة على جمجمته!. لا بد أن سيارة مسرعة هي التي هرست ساقَي القط المسكين.. ولكن كيف يتسنى لسيارة ما أن تدخل إلى الزقاق الضيق؟

- أنت مريض.. لقد ازداد اصفرار وجهك.. أتريد شايًا؟

- شاي؟ كلا! ولكن قل لي: هل يستطيع قط تكسرت ساقاه
الخلفيتان أن يزحف من أول الزقاق إلى حيث صنبور المياه في
وسطه؟

- قط يزحف؟ ماذا دهاك؟ أنت تشكو من الحمى!
نهضت سميرة لتأتي بالشاي.. وشعر هو بأنه محموم فعلاً.. لقد
جس جبهته بظاهر كفه، كانت مبللة بالعرق.

- هذا من فعل الشمس.. أنا لست مصاباً بالحمى!
أرعى جسده فوق المقعد الوثير.. وحاول أن ينسى نفسه قليلاً:
- إن لغرفة العاهرة رائحة خاصة.. لا بد أنها تنبعث من مكان
ما.. السرير؟ الستائر؟ أم من أنفي نفسه؟ ولكنها رائحة خاصة
ومتميزة.. أستطيع شمها ككلب صيد مدرب.. كلب؟ ما الذي أوصل
القط إلى منتصف الزقاق؟؟

اعتدل في جلسته، وعادت سميرة تحمل الشاي بمنامتها
الوردية، حذق إلى جسدها وشعر بأنه لا يرغبها كثيراً، ثم سمعها:
- فكرت في سؤالك.. هل كان القط على وشك الموت؟
- نعم... أعتقد.. كان ينتظر..

- إذن.. لقد زحف إلى هناك كي يموت هناك!
- ولماذا يريد أن يموت هناك؟

- اسأله.. أنا لست قطا.

وضحكت بالمجون اللائق بها، ثم جلست إلى جانبه ووضعت ذراعها البض على كتفيه.. فيما أخذ يسائل نفسه: «ولكن أية قوة هذه التي جعلته يزحف من الشارع إلى منتصف الزقاق. أية قوة؟» وقام فجأة من مكانه نافضاً رأسه بعنف كي تسقط الفكرة التي استولت عليه.. وأخذ يتجول في الغرفة باحثاً عن موضوع آخر، أقل سواداً:

- لماذا تسكنين هنا؟ لماذا لا تجدين لنفسك بيتاً على الشارع يوفر على زبائنك مشقة المسير داخل هذا الزقاق الكئيب؟ ضحكت سميرة.. وقامت فاستلقت على سريرها بإعياء متكلف، وقالت ناظرة إليه من طرفي عينيها:

- كي لا يصل إلى هنا إلا الزبون الذي يرغبني فعلاً.. إن الزبون الذي لا يميل إليّ يصعب عليه المسير هذه المسافة الطويلة إلى الزقاق.. ولذلك فهو يفضل أن لا يأتي.. أما الذين يحبونني، مثلك، فيمشون.

وضع كفيه في جيبه، وعاد يتجول في الغرفة.. كانت رأسه فارغة تماماً إلا من دوامة غثيان بلا ألوان.. أما الذين يحبونني، مثلك، فيمشون!. نظر إلى الحائط كي يسحق الجملة التي أخذت

تعوي كذئب ضائع في رأسه: كانت ثمة صورة تمثل شلالاً من المياه
المزبدة.. وتحتها مباشرة تمثال من الرخام الرخيص لامرأة عارية بلا
رأس.. والطاولة.. والمقعد خلفها.. والمرأة.. ثم السرير.. وهي
مستلقية هناك تدخن.

وسمع صوتها، محاولة أن تسكب فيه كل أنوثتها كي تحرك
وجوده:

- أما الذين يحبونني.. مثلك.. فيمشون..

- إذن هكذا؟

- ماذا؟

- لقد زحف.. القط.. زحف يجرّر خلفه قائمته الميتين إلى
هناك.. كي يموت هناك؟

اعتدلت سميرة في جلستها، وصاحت بصوت مجروح:

- ماذا حدث لك اليوم؟ أنت مجنون.. لم تكن هكذا أبداً منذ
عرفتك.. أتحسب أنني مدرسة تأتي إليّ لتسأل.. وتسأل..

ظل صوتها يدوي.. فيما وضع نقوده على الطاولة، وخرج إلى
الزقاق الكئيب.

دمشق - ١٩٦٠

الخراف المصلوبة

كل الأبعاد التي امتدت أمام بصري بلا نهاية كانت تحترق في شمس الصيف الملتهبة.. والغبار كان يصفع نافذة السيارة باتصال.. حينما كنت أنقل نظري في وجوه رفاق السفر كنت أحس بوضوح كم هي قاسية رحلتنا، شعورهم بيضاء من الغبار، حتى رموش عيونهم كانت مغسولة بلبن مر.. وكانوا يلهثون والعرق يحفر في غبار وجوههم ممرات متشعبة لسيول صغيرة تنصب في أعناقهم..

وعادت تطن في رأسي تلك الجمل الحقيرة التي ما برحت تسليني منذ بدأنا الرحلة:

- هذه رحلة عجيبة! اليوم ليست سوى مأساة.. وغداً سوف نقول عنها إنها مغامرة.

الخط الطويل من السيارات يجري فوق الطريق الرملي متعرجاً يشق صمت الصحراء كأنه شريان جنون تبتلعه الأعماق.. وكانت

نوبة من الفلسفة تجري على شفاه الزملاء المرهقين.

- ليس هناك أي صواب في العالم. إذن؟

- نعم.. لقد حكم علينا بأن نسقط داخل عقولنا فلا نجد ما

نتمسك به.. إن الصواب موجود دائماً عند الآخرين. أما أنت فلست سوى الشك ذاته..

- هذا صحيح..

- يبدو لي أحياناً أن الإنسان الذي يؤمن بمثل عليا بصورة

عميقة يكون أقرب إلى مغادرة إيمانه من أي إنسان آخر.. إذ إنه يكون قد تعلم كيف يشك بإخلاص.

بدت لي هذه الكلمات بلا معنى على الإطلاق.. حينما يرى

الإنسان أن الأشياء موجودة يصبح أمر تبريرها شيئاً لا قيمة له. وقد رأيناها.. هذا كل الذي يهمني..

- أهو البدوي الذي جعل رأسك تتدفق بكل تلك الفلسفة؟

- أه.. البدوي! كدت أنساه.. ربما كان البدوي هو الذي فعل

ذلك.. ربما كان هذا الحر الملعون.. لست أدري.

أنا أعرف أنه البدوي فقط! فحينما يأخذ المثقف درساً صغيراً

من بدوي ضائع في الربع الخالي يشعر بشيء من الخجل.. وزميلي

الطبيب يحاول أن ينسب صداعه للشمس.. لا، إنه البدوي.. ومهما

حاولت السيارة أن تبتعد عن المكان الذي تركناه فيه، فلا بد وأن نبقي مربوطين بقسوة إلى تينك العينين الحادثتين اللتين بقيتا تتابعان سيارتنا حتى واراها القيظ، والغبار.. كنت أرغب في الكف عن سماع حوار الزميلين.. ولكن لم يكن لي من تسلية أخرى بين هذه الجدران التي تهتز باتصال:

- إن هذه الفلسفة لم تبرح رأسك منذ غادرنا الكويت.. أتذكر حينما قلت لي إن اختياري لمرافقة بعثة الحج كان أكبر مهزلة مرت في حياتك؟

- إيه! ولكنني أتيت! لقد عشت كل عمري غير مؤمن على الإطلاق، وكان اختياري لأكون واحداً من أطباء البعثة بمثابة إجباري على أن أحج.. هل تتصور ذلك؟

- أتصوره جيداً.. أنت تمضي هذه الأيام عادة في القاهرة أو لبنان أو ربما في سويسرا.. أما أن تقضيها داخل هذه الجهنم الممدودة إلى الأبد فأمر مزعج بالنسبة لك.. أما أنا..

- أنت من هواة الرحلات! أنت تطمح في أن تقف السيارة بنا ونجد أنفسنا مجبرين على متابعة الطريق زحفاً فوق هذا الزجاج المصهور.. ولكن قل لي: ألسنت تطمح في كل ذلك من أجل أن ترويه يوماً ما، وأنت منفوخ كديك مجنون، لبعض الفتيات؟

آراء هذا الطبيب تزعجني كثيراً.. ولكنه رغم ذلك يعرف كيف يصطاد الآخرين.. لقد انفجر زميله بالضحك، واقتنع من الهزيمة بالإطراء..

يقص مغامراته على بعض الفتيات! أمر عجيب! ترى ماذا سيقول لهن هذه المرة؟.. أغلب الظن أنه سوف يبدأ الحديث على هذه الصورة:

- أي والله! لقد رأيته هناك.. كان في موطن الصحراء والشمس تحرق الرمل بقسوة ولكنه كان واقفاً بهدوء ودعة.. من أين أتى؟ لسنا ندري! كيف وصل إلى هنا؟ لسنا ندري.. عن أي شيء كان يبحث؟.. أغلب الظن أنه كان يبحث عن ماء لخرافه الهزيلة.. كان يركب تسعة خراف عجاف في شوك الصحراء.. وكان واقفاً هناك..

- يبدو كأنه رجل مصلوب في وسط هذه الصحراء العجيبة.. كان فعلاً يمد ذراعيه بصورة تكاد تكون أفقية، ولكنه كان، رغم ذلك، واقفاً على الأرض.. ومع اقتراب السيارة منه بدأت دهشتنا تتلاشى شيئاً فشيئاً ليحل محلها شيء يشبه الفضول.. ذلك أننا - من فوق تلة صغيرة - رأيناه بوضوح..

بدوياً أسمر يحدق ببرود.. كأنه تعود أن يشاهد مثل هذه المناظر دائماً.. ناشراً ذراعيه فوق بندقية عتيقة ممدودة على كتفيه

ومؤخرة عنقه.. لابساً كوفية ملقاة بإهمال فوق رأسه وثوباً عتيقاً لا يرد الشمس ولا الغبار.. وكانت خرافه التسعة مستلقية حواليه تلهث بصفير مسموع وكان واضحاً أن القيظ قد نهكها..

حينما تباطأت حركة السيارات ثم وقفت إلى جانبه، بدت لي أنها نوبة غريبة من الحمى هي التي توحى لي أن يكون وجود هذا الإنسان معقولاً.. بعيداً عن كل شيء.. مجرد خراف عجاف تسلي وحدته وبندقية عتيقة منشورة على كتفيه.. واعتقدت - لهنية - أن علي أن أتلسمه بأصابعي كي أقتنع بأنه موجود ومعقول...

وهتف صوت من ورائي صائحاً بجذل ولكن بخوف أيضاً:
- هي ذي أسطورة من إسبارطة.. الرجل والإله في مكان واحد.. ترى ماذا يفعل هنا؟

وأجابه الطبيب الآخر ببرود:

- يتعبد..

فإذا بدأ بهذه الطريقة فسوف يلفت نظر السيدات الجالسات، وسوف يقدم له أحد المدعوين لفافة كي ينسجم أكثر في الحديث، ولربما أسقطت إحدى الجالسات نقطة أو نقطتين من كأسها فوق رداثها في غمرة انجذابها الكلي إلى الحديث الطريف. أما هو فمن المحتمل أنه سيكون لحظتذاك في ذروة سعادته.. وسوف تتساقط

فوقه الأسئلة من كل صوب:

- ماذا كان يفعل هناك؟ هل بدا قوي البنية، كان أسمر أليس كذلك؟ هل تحدثتم معه؟ ألم يكن مسلحاً؟ تقول نصف مجنون؟ كيف يعترض بدوي واحد قافلة سيارات كبيرة؟ العجيب أنه استطاع إيقافها! هل كانت عربيته فصحي؟..

أما هو، فلسوف ينتفخ أكثر فأكثر وهو يهدئ من اندفاعهم:
- لماذا تستغربون إلى هذا الحد؟ في تلك الصحراء الخارجة عن العالم يستطيع الطبيب المسافر أن يرى أي شيء.. يبدو لكم الأمر غريباً الآن.. أما بالنسبة لنا فلقد كان عادياً.. لا شيء كان يستطيع أيامذاك أن يحمل الدهشة إلى عيوننا.. لذلك، فنحن حينما رأيناه واقفاً هناك وحيداً إلا من تسعة خراف عجاف.. لم تخطر لبال أحدنا قط أن يتعجب أو يدهش كما تفعلون الآن..

سوف يقول ذلك وهو يروي القصة فقط! أما حينما شاهدها معنا.. حينما حددنا معاً خلال زجاج السيارة المغبر كانت الدهشة تأكلنا جميعاً في آن واحد.. كان يبدو صغيراً عن بعد وحوله تسع نقاط سوداء في صفرة الرمل الملهب.. وسمعت صوتاً من خلفي.. كان السائق قد نزل وسمعنا، عبر نافذة السيارة، حوارهما:
- تقصدون الحج.. أليس كذلك؟

- نعم.. أتريد زاداً؟.

هبطنا من السيارة واتجهنا نحوه.. كانت عيناه تحتويان على شيء لا يفسر، وبدأ أنه لا يريد شيئاً سوى أن نمضي ونتركه..
- لست أريد زاداً.. أنا لا أكل كثيراً..

- ماذا تفعل هنا؟

سأل صوت من خلفي.. ولمعت في عيني البدوي دهشة مفاجئة كأن يكون السؤال لا معنى له، ثم تمتم:
- أرعى هذه..

- هذه؟ ماذا تجد هنا كي ترعاه؟

- الشوك إنه ما زال طرياً بعض الشيء..

- ولكن يبدو أن خرافك متعبة..

نظر إليها كأنه يشاهدها لأول مرة.. ولمعت في عينيه الحادتين ومضة ألم صلبة.. وهز رأسه:

- إنها عطشى..

- إذن اسقها..

- لست أملك ماء.. ولم أجد طوال هذا النهار أية قطرة..

كان الحزن قد أخذ يتسع في عينيه حتى ملك كل شيء، وبدأ لي أنه موشك على البكاء.. ولكن الخلق الذي كان خلفي كان ما زال

راغباً في متابعة الأسئلة:

- وأنت.. ألسنت عطشاناً؟

- أنا؟

وهز رأسه من جديد وذراعاه ما زالتا منشورتين فوق البندقية

وتابع:

- أنا لا يهمني.. ولكن هذه المسكينة عطشى..

- كيف تأكل هنا؟..

- إنني أجترع حليباً من ضرع هذه كل صباح.. ولكنها عطشى..

- متى سوف تعود إلى أهلك؟

قلب شفتيه، وعاد يهز رأسه بصمت.. وحقق من جديد إلى

خرافه المستلقية ثم همس:

- أنا لا يهمني.. ولكن هذه المسكينة عطشى!

ثم جأر نحونا بعيون متوسلة وهتف بصوت ضارع:

- أليس عندكم ماء لهاته المسكينات؟؟

وتصدى السائق:

- لا والله.. نحن لا نملك ماء كثيراً.. ولكن إذا أردت سقيناك

أنت.

تجاهل البدوي العرض، وأشار برأسه إلى السيارة التي تحمل

براميل الماء على ظهرها وسأل:

- أليس هذه ماء؟

- نعم ماء.. ولكنه للسيارات..

- ماء للسيارات؟

سأل بعجب.. وعاد السائق يقول:

- السيارات تحتاج دائماً إلى الماء.

- ولكنها عطشى.. بل ربما ماتت..

حدق إلى البراميل بوجل.. ثم هز رأسه كأنه غير قادر أبداً على

فهم الموقف وكرر من جديد:

- الخراف عطشى.. بل ربما ماتت..

- إذا أردت سقيناك أنت..

- إنني أريد ماء لخرافي.. أأستم ترون أنها عطشى؟

- أتريد طعاماً؟

هز رأسه من جديد.. ونقل عينيه فوق وجوهنا جميعاً ثم تضرع

بصوت فاجع:

- أأستم ترون أنها موشكة على الموت؟ إنها عطشى..

- ولكننا لا نقدر على إعطائك ماء..

- لماذا؟

- السيارات..

- السيارات؟ هل تساوي هذه السيارات كلها خروفاً واحداً من

خرافي؟

بدت لوهلة أنها نكتة جيدة.. ثم ما لبثت نظرة الحزن في

عيونه الحادة أن ردتنا إلى مرارة الموقف..

- هل أهلك يبعدون كثيراً عن هنا؟

أشار بكفه، من فوق بندقيته إلى ما وراء ظهره وقال بملل:

- بعيداً..

- والآن ماذا سوف تصنع؟

هز كتفيه من جديد.. وحدق إلى خرافه، ثم إلى وجوهنا،

وبهدوء، استدار وأخذ ينظر إلى الصحراء معطينا ظهره..

وحينما عادت المحركات تهدر من جديد، سمعنا صياح السائق

وهو يعطيه العرض الأخير:

- إننا على استعداد لإعطائك ما شئت من الطعام.. ولنسقيك ما

شئت من ماء.. ألسبت ترغب في ذلك.

وخلال غبار زجاج نافذة السيارة، رأيناه يستدير ليواجهنا

مصلوباً على بندقيته، كما شاهدناه دائماً، وهتفت شفتاه بصوت

راجف:

- إنها عطشي.. بل ربما تموت هذا المساء..
وتحركت السيارات، وبقي المصلوب يتضاءل في البعد شيئاً
فشيئاً حتى غيبه القیظ والغبار.



كانت نوبة الفلسفة ما زالت مكبلة بعقلي الزميلين في المقعد
الخلفي.. ووجدت نفسي مرغماً على أن أكرر لنفسي تلك الجمل
الحقيرة التي ما برحت تفتك بعقلي منذ زمن طويل:
- هذه رحلة عجيبة.. اليوم ليست سوى مأساة.. وغداً سوف
نقول عنها إنها مغامرة..

الكويت - ١٩٦٠

سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والأطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك؟)

عائد إلى حيفا

قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

مسرحيات

الباب

القبعة والنبوي

جسر إلى الأبد

دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦

في الأدب الصهيوني

جرت العادة أن يحصل الإنتاج الأول لأي كاتب على «جواز مرور» للقارئ... كلمة لقلم مشهور تنصدر الكتاب.. أو جمل موجزة على ظهر الغلاف، أو حملة دعائية واسعة يشترك فيها الكاتب والناشر وأصدقاء الطرفين، يحكون فيها كيف خلقت القصص، وكيف نزفها القلم المجروح، وكيف.. وكيف.. أنا أوأمن أن الكتاب يجب أن يقدم نفسه، وإذا عجز عن إحراز جزء من طموح كاتبه، فعلى الكاتب أن يقبل ذلك ببساطة، كما قبل - مرات ومرات - أن يمزق قصصاً ليعيد كتابتها.. أو يكتب سواها.. وهكذا «فموت سرير رقم ١٢»، أدفعها لتشق طريقها، إن استطاعت أن تهتدي إلى أول الطريق، بنفسها، دون «شفاعة» ودون «وساطة» ودون «جواز مرور».

غسان كنفاني، ١٩٦١



9 789963 610822